مِنْ أَسَالِيبِ القُرْآنِ

تأليف

الدكتور ابراهيم السامرائي

كلية الآداب - الجامعة الأردنية

مؤسسة الرسالة

دار الفرقان

الطبعة الثانية

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

دار الفرقان
للنشر والتوزيع
عمان / الأردن / جبل الحسين شارع خالد بن الوليد
ص. ب ٩٢١٥٢٦ ت: ٦١٠٩٣٧

مؤسسة الرسالة
للطباعة والنشر والتوزيع
مؤسسة الرسالة بيروت – شارع سوريا – بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ – ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

بسم الله الرحمن الرحيم

المقــــدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمده واستغفره وأستعينه وأصلي على خير خلقه محمد بن عبدالله وعلى آل بيته الطاهرين وعلى صحبه الميامين ـ رضوان الله عليهم أجمعين : ـ .

وبعد فإن أحسن الكلم ما تناول كلام الخالق العظيم ـ جل شأنه ـ . وقد بدا لي أن أقف وقفة جديدة[1] على هذه اللغة الشريفة فأطلع منها على شيء من أساليب العربية التي لم تنل من الدارسين الأوائل ومن خلفهم من أهل عصرنا غير القليل . لقد نظر فيها النحاة وبسطوا فيها القول على أنها مواد نحوية تدخل في أبواب مختلفة في « الفعل » وقد ضلوا الطريق في هذا الحساب الذي لم يعرض لدلالات هذه الطائفة من المواد التي سيقف عليها الدارسون في كتابي هذا .

ولعل بي حاجة إلى أن أقول: إننا لم نستوف في الدراسات القرآنية ماكان ينبغي لنا أن ندركه على كثرة عناية المسلمين بهذا الكتاب منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا .

لقد حُبِّب إليَّ أن أتزود بفيض كلام الله وأنا حدث غرير فأقبلت عليه تعلماً وقراءة وتلاوة وتجويداً ولا أخفي أني ما تغنّيت بالكلم الشريف على نحو مايصنع هؤلاء الشادون في عصرنا من التطريب الذي يستهوي العامة . ومعاذ الله أن يُصار في الكلم الشريف إلى هذا ، وليس من شك أن هذا الذي

---

(١) أفادني الزميل الكريم الاستاذ الدكتور بركات أبو علي أن استاذه الشيخ عبدالخالق عضيمة قد حرر مباحث عدة في « أساليب القرآن » نشرها في المجلات السعودية ولم يتهيأ لي أن أطلع عليها .

يضطرب به هؤلاء فيغنون ويدعونه «التجويد»، وينشدون ويطربون ويدعونه «الترتيل»، بعيد عن إحسان التلاوة وتجويدها.

قلت: لقد عكفت على هذا الكتاب ولقد فتح الله عليَّ فيه، حتى إذا انسلخت عني حقبة الصبا وأقبلت على الدرس أيّام الطلب بدا لي أن أقف وقفات جديدة استوحي من هذا الكتاب ماأعانني به الله فأدركت أن الأمر معوز، وأن شيئاً كثيراً من هذه اللغة السمحة مفتقر إلى مزيد من النظر.

وليس شيء أحبّ إلي من نظر هادٍ أطلع فيه على ما أهتدي إليه بعونه تعالى من فوائد هذه الأفانين العلية، ومن الحق أن اقول أن الأوائل قد بذلوا الطاقة في فهم هذه اللغة، فكان من ثمار ذلك أن قام بناء هذا الصرح المكين من العربية السمحة.

أقول: كان القرآن القاعدة الراسخة التي قام عليها العربي؛ فعلوم القرآن وعلوم الحديث وعلوم الاسلام عامة، هي من الثمار اليانعة التي جناها الجهابذة من كتاب الله.

ولعلي أثبت جديداً أخالف به جمهرة الدارسين في النحو الذين ذهبوا إلى ترداد المقولة القائلة: إن النحو العربي قد وضع بسبب رد غائلة اللحن التي عرضت للألسنة وتجاوزت هذا الحد، فكان من ذلك لحن يعرض للقرّاء في كلام الله.

واستمرَّ القوم على ترداد هذه المقولة واختلفوا في أجزائها فمن قائل إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ دعا أبا الأسود الدؤلي وقال له بعد أن بلغه خبر هذه الجائحة التي عرضت لكلام الله وللعربية عامة: اكتب: الكلمة ثلاث اسم وفعل وحرف.

ومن قائل شيئاً آخر يوصله بزياد بن أبيه، ومؤدّى هذه الحكايات على اختلافها ان النحو وضع ليرَدّ هذا اللحن الوافد الذي كان بسبب أن العرب خالطت الأعاجم في أوائل العصر الإسلامي ففسدت سلائقها العربية.

وأقول: إذا كان هذا سبب وضع النحو فكان لابد أن يكون النحو علاجاً لهذا المشكل القائم، والذي يفترض في العلاج أن يمنع ما استحدث من أجله، شأنه شأن الدواء الذي يصفه الطبيب إلى المريض الذي يفترض فيه أن يشفي المرض ويدفعه، فإن لم يكن هذا فليس هو بدواء.

أقول أيضاً: إذا كان هذا الأمر على النحو الذي بيّناه فهل كان النحو الذي ورثناه عند نشأته شيئاً من العلاج الشافي بحيث كان على قدر العلة التي جاء النحو ليخلص العربية من غائلتها؟

قلت: الذي عرفناه من نحو الخليل وسيبويه كما هو ظاهر في «الكتاب» ان النحو علم كامل واسع له أصوله وفروعه وعلله وتأويله وأساليبه وطرائقه، وليس شيء من ذلك يمكن أن يكونَ علاجاً للعلة الطارئة وعلى قدرها كما يتوقع مما يبتلى المرء به فيجد له وسيلة تدفع عنه الشر.

وليس النحو الذي عرفناه قبل الخليل مما أثر في أقوال أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر وعبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي، ولا الذي عرفناه ممن سبق هؤلاء كمعدان وعنبسة الفيل وغيرهما، شيئاً من هذا بل قل علاج يدفع غائلة اللحن.

لقد عرفنا عن هؤلاء شذرات وردت في كتب النحو واللغة ولم يصل إلينا مما كتبوا من مصنفات، غير أن هذه الشذرات تفصح عن فكر نحوي متقدم له أصوله وفروعه. ألم ينقل إلينا أن ابن أبي إسحاق الحضرمي أول من بعج النحو ومدّ القياس. ولو وصل إلينا كتابا عيسى بن عمر وهما: «الجامع والإكمال» لأدركنا بذلك شيئاً من ذلك العلم الواسع، فقد أطرى العلماء هذين الكتابين، والذي يؤثر مما ورد فيهما يدل على أنهما ليسا من الكتب الخاصة بالشداة.

وإذا عرفنا أن هؤلاء المتقدمين عاشوا في أوائل المئة الثانية للهجرة أدركنا أن النحو من علومهم التي توسعوا فيها، واذا كانت أوائل النحو أو

قل الحاجة إليه مرهونة بعصر زياد، وأننا لم نعلم عن النحو في تلك الحقبة إلا أخباراً مضطربة، أدركنا أيضاً أن النحو علم كسائر علوم العربية التي اتسعوا فيها.

وإني إذ أذهب إلى هذا وأتشبث برد هذه المقولة التي وجدت قبولاً لدى المعنيين بتاريخ العربية، لأقف عند إشارات تاريخية مهمة، وهي ان اللحن لم يكن ظاهرة جدَّت وشاع أمرها بحيث غلبت على العربية ومسخت أصولها مما حفز أهل العلم على أن يتدبروا أمرهم.

لقد عرف اللحن والعربية في جاهليتها، وأن المأثور منه شيء اعتادوه، وربما أدّت إليه لغة الشعر، والشاعر في كل عصر ممتحَن بهذ الضرب من فنون القول وما يفرضه عليه أمر الوزن وأمر القافية.

ولو عرضنا للنماذج الشعرية الجاهلية التي عدل بها النظم عن جهتها الشائعة لوقفنا مثلاً على قول امرىء القيس:

فاليوم أشربْ غير مُستحقبٍ إثماً من الله ولا واغلِ

أقول: وكأن الرواة أو علماء اللغة عدلوا عن قول الشاعر «اشربْ» مجزومة إلى قولهم: «فاليوم أُسقى» بالبناء للمفعول، أو قولهم: «فاليوم ألهو...» ليدفعوا «اللحن» أو ما يُحمل عليه من قول الشاعر. ولو أنهم أدركوا أن الشاعر لم يشعر أنه تجاوز الصواب في قوله لكان لهم وجه حسن من التفسير.

ومثل هذا قول امرىء القيس أيضاً:

كأنّ ثبيراً في عَرانين وَبْله كبير أناسٍ في بجادٍ مُزَمَّلِ

ان قول الشاعر «مزمَّلِ» واللام مكسورة كسائر أبيات القصيدة المشهورة، يحمل على اللحن إن جَرَينا على قواعد النحو في العربية، ولم نلجأ إلى التفسير التاريخي الذي ينكر هذا اللحن ويُجري ماكان من ذلك على أن

حقبة ماقبل الإسلام عرفت ألواناً مختلفة من العربية لم تستقر على حدود ثابتة، وهي في طريقها إلى الاستقرار، وإذا كان هذا فليس غريباً أن نجد هذه المخلفات التي تنافي الكثير الشائع.

ومثل هذا «اللحن» ما أثر في دالية النابغة المشهورة في قوله:

زَعَمَ الغراب بأن رحلتنا غداً   وبذلك خبَّرنا الغراب الأسودِ

وكان الحق أن يقول: الغراب الأسودُ، بضم الدال.

وقد وقفنا على أشياء أخرى تحمل على هذا في العصر الإسلامي المتقدم فقد ذكر المعنيون بتسجيل أوائل اللحن في الإسلام أن الرسول - صلوات الله عليه - قد سمع شيئاً من هذا فقال: أرشدوا أخاكم فقد ضل.

وأريد أن أخلص إلى أن النحو نشأ بسبب من الدرس القرآني، فكما ولّدت العناية بالقرآن طائفة العلوم التي تدعى «علوم العربية» والعلوم الإسلامية الأخرى كذلك جاء علم النحو شئياً من عدة هذه العلوم المعروفة.

وإذا كان لي أن أقف على مسألة «اللحن» فلي أن أقول ان شيوع «اللحن» مما ساعد على أن يجدّ الجادون فيبتكروا ويستقروا وينظروا فيحرّروا البدايات النحوية التي دفعت الدارسين في «علوم القرآن» إلى أن يتوسعوا فيها فتكون علماً كسائر العلوم التي جاء بها الدرس القرآني.

ثم إن هذا الدرس القرآني الذي أوجد طائفة العلوم الإسلامية لأمر حضاري في حد ذاته، وذلك ان التقدم الحضاري للجمتمع العربي القديم الذي تم بالانتقال للهدي الجديد مما جاء به الإسلام لكفيل أن يحفز الدارسين إلى الوصول إلى هذه العلوم.

وهل كان النحو عند سائر الأمم استجابة لشيء من أسباب عارضة على نحو ما قرر الدارسون العرب في مسألة «اللحن»؟ ان تاريخ نشأة العلوم اللسانية لدى كثير من الأمم يثبت أن «النحو» علم لم يُوصل إليه بسببٍ من لحن طارىء أو شيء منه.

وقد بدا لي ان استقراء النحاة الأوائل للقرآن لم يكن وافياً بحيث يكون القرآن مادة هذا النحو. ثم إنهم لم يخلصوا العلم في العربية بل تجاوزوا ذلك فاستعملوا في مناهجهم مواد غريبة عن العلم اللغوي فكان من ذلك ان توسعوا في التأويل والتقدير واختراع العلل مما أدى بهم إلى وجوه كثيرة للقول في المسألة الواحدة، فكانت أقوال، ثم كانت طرائق، فكان بصريون وكان كوفيون، وهكذا انتهى النحو.

ولو أنهم نظروا في اللغة من غير أن يتأثروا بما هو غريب عنها لجاء من ذلك فوائد كثيرة.

وإذا كان لي أن أقف على هذه اللغة فإني لأجد أن الاقتصار على العلم النحوي في طائفة من المسائل قد حمل الضيم على جملة من أساليب القرآن، ذلك أن مسائل كثيرة كالدعاء والقسم والتوكيد والتعجب والمدح والذم والتفضيل معوزة، وان مجال القول لينفسح فيها فتأتي بما لم يذكره النحاة ونخلص من ذلك إلى أن ماقاله النحاة غير معين على فهمها.[١].

هذا وإني لأرجو ان يكون عملي هذا خالصاً منصرفاً إلى خدمة كتابه وفوق كل ذي علم عليم.

من أساليب العربية

في الدعاء

أريد أن أعرض لكلمة «الدعاء» في لغة التنزيل العزيز ثم أخلص من ذلك إلى النظر في الدعاء لغة وأسلوبا.

قال الله تعالى: «وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين»[١].

قال أبو إسحاق الزجاج

يقول: ادعوا من استدعيتم طاعته ورجوتم معونته في الإتيان بسورة مثله»[٢].

وقال الفراء: «وادعوا شهداءكم من دون الله».

يقول: آلهتكم، يقول: استغيثوا بهم، وهو كقولك للرجل: إذا لقيت العدو خاليا فادع المسلمين، ومعناه: استغث بالمسلمين، فالدعاء ههنا بمعنى الاستغاثة.

وقد يكون الدعاء عبادة كما في قوله تعالى: «ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم»[٣]، وقوله بعد ذلك: فادعوهم فليستجيبوا لكم.

يقول: ادعوهم في النوازل التي تنزل بكم ان كانوا آلهة كما تقولون يجيبوا دعاءكم، فإن دعوتموهم فلم يجيبوكم فأنتم كاذبون أنهم آلهة.

وقال أبو إسحاق في قوله: «أجيب دعوة الداع اذا دعان»[٤].

---

(١) ٢٣ البقرة
(٢) اللسان (د ع و)
(٣) ١٩٤ الأعراف.
(٤) ١٨٦ البقرة

معنى الدعاء لله على ثلاثة أوجه: فضرب منها توحيده والثناء عليه كقولك: يا الله لا إله إلا أنت، وكقولك: ربنا لك الحمد، إذا قلته فقد دعوته بقولك: «ربنا» ثم أتيت بالثناء والتوحيد.

ومثله قوله تعالى: «وقال ربكم ادعوني استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي....»[٥] فهذا ضرب من الدعاء، والضرب الثاني: مسألة الله العفو والرحمة وما يقرب منه كقولك: اللهم اغفر لنا،

والضرب الثالث: مسألة الحظ من الدنيا كقولك: اللهم ارزقني مالاً وولداً، وإن سمي هذا جميعه دعاء، لأن الانسان يصدر في هذه الاشياء بقول: يا الله يارب يارحمن، فلذلك سمي دعاء.

وفي حديث عرفة: اكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي بعرفات لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وانما سمي التهليل والتحميد دعاء لأنه بمنزلته في استيجاب ثواب الله وجزائه كالحديث الآخر:

إذا شغل عبدي ثناؤه عليّ عن مسألتي أعطيته أفضل ماأُعطي السائلين.

وأما قوله عز وجل:

«فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين»[٦]، المعنى أنهم لم يحصلوا مما كانوا ينتحلونه من المذهب والدين وما يدعونه إلا على الاعتراف بأنهم كانوا ظالمين، هذا قول أبي اسحاق[٧].

قال: والدعوى اسم لما يدعيه، والدعوى تصلح أن تكون في معنى الدعاء، لو قلت: اللهم اشركنا في صالح دعاء المسلمين أو دعوى المسلمين جاز، حكى ذلك سيبويه، وأنشد:

---

(٥) ٦٠ غافر

(٦) ٥ الأعراف.

(٧) اللسان (ع دع و)

قالت ودعواها كثير صخبه..

وأما قوله تعالى: «وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين»[٨] فيعني ان دعاء أهل الجنة تنزيه الله وتعظيمه، وهو قوله:

«دعواهم فيها سبحانك اللهم»[٩] ثم قال: «وآخر دعواهم...».

أخبر أنهم يبتدئون دعاءهم بتعظيم الله وتنزيهه ويختمونه بشكره والثناء عليه، فجعل تنزيهه دعاء وتحميده دعاء، والدعوى هنا معناها الدعاء.

وروي عن النبي - ﷺ - أنه قال: الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: «وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي»[١٠].

وقال مجاهد في قوله:

«واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي»[١١]، قال: يصلون الصلوات الخمس.

وروي مثل ذلك عن سعيد بن المسيب في قوله تعالى:

«لن ندعو من دونه إلهاً»[١٢]، أي لن نعبد إلهاً دونه.

والدعاء: الرغبة إلى الله - عز وجل.

وفي الحديث: لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة، يعني الشيطان الذي عرض له في صلاته، وأراد بدعوة سليمان - عليه السلام - قوله: وهب لي ملكا لاينبغي لأحد من بعدي.

ومنه الحديث: «سأخبركم بأول أمري دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى»، دعوة إبراهيم - عليه السلام - قوله تعالى: «ربنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم يتلو

---

(٨) ١٠ يونس.
(٩) ١٠ يونس.
(١٠) ٦٠ غافر.
(١١) ٢٨ الكهف.
(١٢) ١٤ الكهف.

عليهم آياتك»[١٣]، وبشارة عيسى ـ عليه السلام ـ قوله تعالى: «ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد».

وفي حديث معاذ ـ رضي الله عنه ـ لما أصابه الطاعون قال: ليس برجز ولا طاعون ولكنه رحمة ربكم ودعوة نبيكم ـ ﷺ ـ، أراد قوله: اللهم اجعل فناء أمتي بالطعن والطاعون.

دعوت الله له بخير وعليه بشر.

والدعاء واحد الأدعية.

هذا هو معنى الدعاء ودلالته في اللغة والاستعمال.

وقد بلغت العربية في أسلوب الدعاء مبلغاً قل أن نقف على نظيره في سائر اللغات القديمة.

قلت: «اللغات القديمة» لأخصص أن هذا الاسلوب في صوره ودلالاته خاص بالعربية القديمة وأن العربية المعاصرة قد خلت من هذه الصور البيانية التي تبرز في أساليب الدعاء والأساليب الأخرى. ألا ترى أن هذه العربية الجديدة قد خلت من «المثل» وأن كل ما يتمثل به المعربون أحياناً هو مثل قديم استعير لمطالب الحياة الجديدة في بعض الأحايين. وقد يقال: ان اللغات في عصرنا غير محتاجة إلى هذه الألوان الفنية لأن حاجات جديدة قد جدَّتْ صرفت المعربين إلى أن يجدوا في اللغة مايفي بها.

ومن هنا كانت دراسة هذه الأساليب القديمة والوقوف عليها شيئاً يدخل في معرفة تاريخ هذه اللغة العريقة.

قالوا: الدعاء ينصرف للخير كما ينصرف للشر، وقد يدرك هذا أحيانا باستعمال الأداتين: «اللام» في الخير، و «على» في الشر فيقال: أدعو لك، وأدعو عليك.

ويتجاوز استعمال هاتين الأداتين أسلوب الدعاء إلى أسلوب «الخير»

(١٣) ١٢٩ البقرة.

فينصرف كذلك إلى الخير والشر فيقال مثلاً: يوم لنا ويوم علينا.

وقد بقي في استعمال «على» شيء من هذا الجنوح إلى الشر(١٤)، ولعل من أجل ذلك عِيب قول أبي تمام في مطلع قصيدته البائية:

على مثلها من أربع وملاعب اذيلت مصونات الدموع السواكب

قلت: إن الأدب القديم قد حفل بكثير من فنون الدعاء ولنعرض لذلك فنقول:

تختلف جمل الدعاء في العربية فهي قد تبدأ بالفعل، وقد تبدأ بالاسم المرفوع، وقد تبدأ باللام ومدخوله، وكثيراً ما يأتي معنى الدعاء في عبارة صدرت بالمصدر المنصوب.

فمما بدىء بالفعل قولهم:

هديت خيرا (بالبناء للمفعول)، ولقيت خيراً، وصادفت رشدا، ووقيت الشر، وسهل الله عليك، وفرج الله عنك، كل ذلك وغيره مما يتقرب به دعاء. ولك ان تتسع في هذا فتنشىء ما تريد مما ترمي به إلى الخير مفصحاً عن رغبتك في ذلك، فيؤدي الدعاء كأن تقول: هداك الله وبلغت مرادك، ووفقك الله.

ومثل هذا ما ينصرف إلى الشر ارادة الدعاء نحو:

عدمت خيراً ولقيت شراً، وقاتلك الله، ولعنك الله وغير ذلك.

ومن هذا ألفاظ التصلية والتسليم والرحمة والرضوان على النبيين والأولياء وسائر الصالحين فنقول في «الصلاة والسلام» على نبينا محمد: صلى الله عليه وسلم.

---

(١٤) على أنه ينبغي الاحتراز في هذا فنقول: قد تستعمل «على» في الدعاء للخير كقولنا: عيسى ـ عليه السلام ـ وغيره من أنبياء الله مثلا.
كأن يقال: عليه أزكى الصلاة وأتم التسليم.

ونقول: عيسى وموسى وسائر الأنبياء: عليهم السلام.

ونقول: ومن حديث علي - عليه السلام - أو رضي الله عنه، وقد ورد أيضاً كرم الله وجهه.

ونقول: وكان عثمان بن عفان - رضي الله عنه -.

كما نقول: ومما أثر عن الإمام الشافعي واضرابه: رضي الله عنهم. وقد تبدأ عبارة الدعاء بالاسم المرفوع نحو:

رحمة الله عليه، ورضوان الله عليه، وسلام الله عليه... كما نقول: لعنة الله عليه[١٥]، وقد يعطف عليه كقولهم: لعنة الله وغضبه عليه.

وقد يؤخر المرفوع فيبدأ باللام ومدخوله نحو.

لك الحمد ولك الخير ولك السعد.

كما نقول: لك الله، قال المتنبي في رثاء جدته:

لك الله من مفجوعة بحبيبها   قتيلة شوق غير ملحقها وصما

كما يقال: لك الويل، قال الفرزدق:

لك الويل لا تقتل عطية انه   أبوك ولكن غيره فتبدل.

وقد ترد عبارة الدعاء مصدرة بـ «لا» النافية بعدها فعل ماض نحو: لافض فوك في استحسان قول أحدهم كأنه قيل: أحسنت.

والمعنى: لاتكسر أسنانك، والفم ههنا الاسنان كما يقال: سقط فوه يعنون الاسنان.

وقد ترد العبارة بالفعل المضارع: لا يفضض الله فاك.

ومن ذلك حديث النابغة الجعدي لما أنشد الرسول الكريم

---

(١٥) أقول: والدعاء باستعمال «غضب الله» ينزل بالمدعو عليه من لغة العامة أيضاً في عصرنا.

القصيدة الرائية قال: لا يفضض الله فاك، قال: فعاش مائة وعشرين سنة لم تسقط له سن.

وفي حديث العباس بن عبدالمطلب أنه قال: يارسول الله إني أريد أن أمتدحك، فقال: قل لا يفضض الله فاك، ثم انشده الأبيات القافية.

ومثل هذا: لاعدمتك، ولا ظفر حاسدوك.

ومن المناسب أن نشير إلى أن الفعل «زال»، المفيد للاستمرار يترشح للدعاء إذا سبقه «لا» كقول ذي الرمة:

ألا يا اسلمي يادار مي على البلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر

ومن المفيد أن أشير قبل الكلام على «انهلال القطر» في البيت، إلى أن صدر البيت قد حفل بنمط آخر من الدعاء وذلك بالأمر في «يااسلمي» والخطاب إلى «دار مي». يدعو الشاعر للدار أن تسلم على البلى فلا ينال منها الزمان شيئاً.

أقول: واستعمال الامر كثير في لغة الدعاء، ولعله أكثر سيرورة من الصيغ الأخرى وهذا يعني أن «الامر» قد خرج إلى الدعاء والالتماس رغبة في شيء ينصرف إلى الخير حينا وإلى الشر حينا آخر. ويأتي في لوازم هذه الجمل الدعائية أسلوب النداء المتمحض للدعاء كقولنا: اللهم انصرنا على الأعداء، وربنا اهدنا إلى سواء السبيل. وأنت واجد من هذا الأسلوب الشيء الكثير مما حفلت به لغة التنزيل العزيز كما سنرى.

ولنعد إلى بيت ذي الرمة فنقول ان دعاءه بانهلال القطر أسلوب درج عليه العرب في جاهليتهم واسلامهم. وأن هذا الدعاء يكاد يكون أحياناً كالتحية ألا ترى أن هذا يتحقق في قول النابغة:

نبئت نعما على الهجران عاتبة   سقيا ورعيا لذاك العاتب الزاري

فإذا كان غيث[16] كان منه لهم سقي وخصب ثم رعي.

وليس قولهم: «رعاك الله» الا مشيرة إلى هذا الاصل القديم الذي هو الرعي للسائمة من الابل وغيرها، فكأن قولهم «رعاك الله» المراد بها «الرعاية» تلمح إلى دأب الرعاء مع إبلهم.

ومن الغيث قالوا: جادك الغيث أي أصابك غيث جود وهو الغزير.

والدعاء بالسقي كثير في الأدب القديم، قال جرير:

أتذكر اذ تودعنا سليمى   بفرع بشامة سقي البشام

وقوله:

متى كان الخيام بذي طلوح   سقيت الغيث أيتها الخيام

وليس اتفاقاً أن يجيء «الغوث» بمعنى النجدة من «الغيث» وهو الرحمة والخصب والخير والبركة، وهو غير «المطر» في هذه الخصوصية الدلالية.

قال الأصمعي: أخبرني أبو عمرو بن العلاء قال:

سمعت ذا الرمة يقول: قاتل الله أمة بني فلان ما أفصحها!

قلت لها: كيف كان المطر عندكم؟ فقالت غثنا ما شئنا.

والمعنى: سقينا ماشئنا. وهكذا عدلت عن «المطر» في سؤال السائل إلى «الغيث»...

وقد تأتي عبارة الدعاء مبدوءة بمصدر منصوب كقولهم: سقيا ورعيا، وحمداً لك اللهم، وأهلا وسهلا وغير هذا.

وقد يأتي أسلوب الدعاء رسما من رسوم الأدب مما يقتضيه

---

(١٦) أقول فرق العرب بين الغيث والمطر فكان الغيث في الأغلب الأعم خيراً وخصباً وبركة، ولن يكون عذابا البتة، أما المطر فينصرف إلى العذاب، كما ينصرف إلى حقيقته غير أنه لم يرد في القرآن إلا في معرض العذاب والشر وذلك في خمس عشرة آية في سور مختلفة.

الظرف وحسن المعاشرة، ومن ذلك قولهم للمُمْلِك دعاء له:

« بالرفاء والبنين » أي بالالتئام والاتفاق وحسن الاجتماع.

قال ابن السكيت: وان شئت كان معناه بالسكون والهدوء والطمأنينة، ففي الحالة الأولى يكون الأصل « رفأ »، وفي الحالة الثانية يكون الأصل « رفا » آخره ألف من قولهم: رفوت الرجل اذا سكنته.

قالوا: رفأه ترفئة وترفيئا: دعا له: قال له: بالرفاء والبنين.

وقالوا: رقح بمعنى رفا. وفي الحديث: كان إذا رقح انسانا قال: بارك الله عليك.

ومن هذا الباب قولهم في الدعاء للعاطس: يرحمك الله.

وهو التسميت أي ذكر الله - عز وجل - على كل حال، وقيل: معناه هداك الله إلى السمت وذلك لما في العاطس من الانزعاج والقلق.

وقد سمته إذا عطس، فقال له: يرحمك الله، أخذ من السمت إلى الطريق والقصد، كأنه قصده بذلك الدعاء، أي جعلك الله على سمت حسن.

ومن هذا الباب أيضاً ما يقال للعاثر:

حوجا لك: أي سلامة.

ولما كان الحديث عن العاثر فمن المفيد أن نشير إلى ماجاء في هذا من قولهم:

التعس: العثر، والتعس أن لا ينتعش العاثر من عثرته وأن ينكس في سفال.

قال أبو إسحاق في قوله تعالى: «فَتَعْساً لهم وأضلَّ أعمالهم»، يجوز أن يكون نصبا على معنى أتعسهم الله. وقال الأعشى:

بـذات لـوث عفـرنـاة إذا عثرت   فالتعس أدنى لها من أن أقول لعـا

ويدعو الرجل على بعيره الجواد اذا عثر فيقول: تعسا! فإذا كان غير جواد ولا نجيب فعثر قال له: لعا.

وقد يجتزأ من «لعا» بقولهم: عالك عاليا للدعاء بالاقالة، أنشد ابن الاعرابي:

أخاك الذي ان زلت النعل لم يقـل: تعست، ولكن قال: عالـك عـاليـا

ما جاء في الدعاء في لغة التنزيل:

قال تعالى:

ألا بعداً لعاد قوم هود   ٦٠ هود.

ألا بعداً لثمود   ٦٨ هود.

ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود   ٩٥ هود.

والبعد هنا الهلاك، وقوله: بعدت ثمود أي هلكت، قال مالك ابن الريب:

يقولون: لاتبعد، وهـم يـدفنـونني   وأيـن مكـان البعـد الا مكـانيـا

وقد فرق في الفعل بين البعد بمعنى الهلاك، والبعد بمعنى الابتعاد فقيل في الاولى «بعد» مثل «فرح»، وفي الثانية: «بعد» مثل «كرم» وهذا شيء من لطائف هذه اللغة الكريمة. قال المتنبي:

ابعد بعـدت بيـاضـا لابيـاض لـه   لأنـت أســود في عيني مــن الظلم

ومن الدعاء قوله تعالى:

تَبَّتْ يدا أبي لهب

أي ضلتا وخسرتا، وقال:

اخسر بها مـن صفقـة لم تستقـل تبـت يـدا صـافقهـا مـاذا فعـل

ومن الدعاء أيضاً قوله تعالى:

فتعسا لهم وأضل أعمالهم ٨ محمد.

أي هلاكا لهم.

وفي دعائهم:

« واجعلني لك مخبتا ».

أي خاشعاً مطيعاً. وأخبت لله أي خشع وتواضع.

وفي التنزيل العزيز: « فَتُخبتَ له قلوبهم » (٥٤ سورة الحج) أي تخشع.

ومن الدعاء أيضاً قوله تعالى:

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ١٠ يونس.

ولا تعدم الآية الأولى من الفاتحة أن تكون مفيدة للدعاء لدى من يتلوها:

الحمد لله رب العالمين.

ومثل هذا دعاء الصلاة: « لك الحمد ملء السموات والأرض».

ومن الدعاء أيضاً قوله تعالى:

« دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام » ١٠ يونس.

وقد يتوصل إلى الدعاء بالمصدر « حمداً » فيقال: حمدا لك اللهم.

ومن الدعاء في لغة التنزيل العزيز:

« فسحقاً لأصحاب السعير » ١١ الملك.

والسحق: البعد، فكأن المعنى فبعداً لأصحاب السعير. ومكان سحيق أي بعيد.

وفي التنزيل: «أو تهوي به الريح في مكان سحيق» (٣١ سورة الحج).

وحديث «السلام» مستفيض في لغة التنزيل، وهو في أي كثير يراد به الدعاء ومنه:

واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلامٌ عليكم.	٥٤ الانعام
ونادوا أصحاب الجنة أنْ سلامٌ عليكم.	٤٦ الأعراف
وتحيتهم فيها سلام.	١٠ يونس.
لقد جاءت رسلنا بالبشرى قالوا سلاما قال سلام	٦٩ هود
سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار	٢٤ الرعد
وسلامٌ عليه يوم وُلِدَ...	١٥ مريم
والسلام عليَّ يوم ولدتُ...	٢٣ مريم
وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين	١٨١ الصافات

ومن الدعاء قوله تعالى:

«ربنا اطمس على أموالهم» ٨٨ يونس.

أي غيرها. وقد ورد «الطمس» في لغة التنزيل ومنه قوله:

«ولو نشاء لطمسنا على أعينهم» (٦٦ سورة يس).

وقال تعالى:

«الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب» ٢٩ الرعد. ذهب سيبويه بالآية مذهب الدعاء.

ويحسن بنا أن نقف طويلاً على كلمة «طوبى» التي أفادت الدعاء لنقول فيها شيئاً وذلك لخصوصيتها واختلاف الأقوال فيها.

طوبى: فعلى من الطيب، كان الأصل «طيبى» فصير إلى الواو لمكان

الضمة فيها .

ويقال: طوبى لك وطوباك .

قال يعقوب: ولا تقل: طوبيك .

وجاء في «التهذيب»: ان العرب تقول طوبى لك، ولا تقول طوباك .

وهذا قول أكثر النحويين الا الأخفش فإنه قال: من العرب من يضيفها فيقول: طوباك .

وقال أبو بكر: طوباك ان فعلت كذا،

قال: هذا مما يلحن فيه العوام، والصواب: طوبى لك ان فعلت كذا وكذا .

وقالوا: طوبى: شجرة في الجنة .

وقرأ ثعلبة: «طوبى لهم وحسن مآب» فجعل «طوبى» مصدراً كقولك: سقيا له . ونظيره من المصادر الرجعى، واستدل على أن موضعه نصب بقوله: «وحسنَ مآب» .

وهو خلاف ماذهب سيبويه إلى أن موضع «طوبى» الرفع عطف عليه بقوله:

«وحسن مآب» مرفوعاً .

قال ابن جني: وحكى أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني في كتابه الكبير في القراءات، قال: قرأ علي أعرابي بالحرم: «طيبى لهم» فأعدت فقلت: «طوبى»، فقال: «طيبى»، فأعدت فقلت: «طوبى»، فقال: «طيبى»، فلما طال علي قلت: طوطو، فقال: طي طي .

قال الزجاج:

جاء في التفسير عن النبي - ﷺ - : أن «طوبى» شجرة في الجنة .

وقيل: طوبى لهم: حسنى لهم، وقيل: خير لهم، وقيل: خيرة لهم. وقيل طوبى اسم الجنة بالهندية وقيل بالحبشية[١٧].

وقال قتادة: طوبى كلمة عربية، تقول العرب: طوبى لك ان فعلت كذا وكذا، وأنشد:

طوبى لمن يستبدل الطود بـالقـرى ورسلاً بيقطين العـراق وفـومهـا

أقول: ومن قال: طوبى عربية فقد أدرك الصواب وذلك لأن أصل «ط و ب، ط ي ب» من الأصول العربية القديمة في العربية وسائر أخواتها من اللغات السامية.

ومن الدعاء قوله ـ عز وجل ـ :

قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ٦٧ البقرة
قالت: إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ١٨ مريم.
قال: معاذ الله إنه ربي أحسنَ مثواي ٢٣ يوسف

ومن الدعاء أيضاً قوله تعالى:

وهب لنا من لدنك رحمة ٨ آل عمران
والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين (٧٤ ـ الفرقان)

وقوله تعالى:

وقال ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي ١٩ ـ النمل

وقوله تعالى:

قاتلهم الله أنى يؤفكون ٤ المنافقون

ونجتزىء بهذا القدر مما ورد من الدعاء في لغة التنزيل العزيز.

وفي الحديث: «طوبى للمُفَرِّدين» أي الذاكرين الله كثيراً.

---

(١٧) قال الصاغاني: فعلى هذا ينبغي أن تكون في الهندية «توبا» بالتاء وذلك لأن الطاء غير معروف في الهندية.

ما جاء من صور أخرى في كتب العربية وسأوردها مرتبة بحسب أوائل المواد التي وردت فيها في تلك المظان:

أثر:

جاء في دعاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ على الخوارج قوله:

« ولا بقي منكم آثر» أي مخبر يروي الحديث.

أرب:

وفي حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ : أنه نقم على رجل قولا قاله، فقال له: أربت عن ذي يديك، معناه: ذهب مافي يديك حتى تحتاج.

وفي خبر ابن مسعود: ان رجلا اعترض النبي ـ ﷺ فصاح به الناس، فقال ـ عليه السلام ـ : دعوا الرجل أرب ماله، أي سقطت أعضاؤه وأصيبت.

قال: وهي كلمة تقولها العرب ولا يراد بها، إذا قيلت، وقوع الأمر كما يقال:

عقرى وحلقى، وقولهم: تربت يداك.

قال ابن الاثير: في هذه اللفظة ثلاث روايات:

احداها « أرب» بوزن « علم» ومعناه الدعاء عليه، أي أصيبت آرابه وسقطت، وهي كلمة لايراد بها وقوع الأمر، كما يقال: تربت يداك، وقاتله الله، وانما تذكر في معنى التعجب.

قال: وفي هذا الدعاء من النبي ـ ﷺ ـ قولان: أحدهما: تعجبه من حرص السائل ومزاحمته.

والثاني: انه لما رآه بهذه الحال من الحرص غلبه طبع البشرية، فدعا عليه.

وقد قال في غير هذا الحديث: اللهم انما أنا بشر فمن دعوتُ عليه فاجعل

دعائي رحمة .

أمت:

قال سيبويه: قالوا أمت في الحجر لافيك، أي ليكن الامت في الحجارة لافيك، .

ومعناه: أبقاك الله بعد فناء الحجارة، وهي مما يوصف بالخلود والبقاء .

ورفعوه وان كان فيه معنى الدعاء، لأنه ليس بجار على الفعل، وصار كقولك : التراب له، وحسن الابتداء بالنكرة، لأنه في قوة الدعاء .

أقول: وفي هذه العبارة التي تنصرف إلى الدعاء لون من ألوان صلة اللغة وأشكالها الأدبية بالبيئة، ومثل هذه البيئة البدوية الشيء الكثير الذي أبقته العربية في أدبها شعراً ونثراً ومثلا وغير ذلك .

أوب:

ويقال للداخل: طوبة وأوبة .

بؤس:

وقالوا : بؤساً له، في حد الدعاء، وهو مما انتصب على اضمار الفعل غير المستعمل اظهاره .

وقالوا : جوسا له وبوسا . والجوس الجوع وستأتي .

برك:

والتبريك: الدعاء للانسان أو غيره بالبركة .

يقال: بركت عليه تبريكا أي قلت له: بارك الله عليك . وبارك الله الشيء وبارك فيه وعليه: وضع فيه البركة .

وفي التنزيل العزيز: وباركنا عليه (١٣ سورة الصافات) .

ومن هذا ماهو جار في اللغة المعاصرة فهم يقولون دعاء: بارك الله فيك، وبورك فيك، وبوركت .

بجل:

قال طرفة:

ألا انني شربـت أسـود حـالكــا ألا بجلي مــــن الشراب ألا بجلْ

قال: أراد الماء،

وقال شمر:* وقيل أراد سقيت سم أسود.

بعد:

والبعد: الهلاك، وقد مر في الكلام على لغة التنزيل.

بلس:

ويقال: أرانيك الله على البلس. والبلس غرائر كبار من مسوح يجعل فيها التبن ويشهر عليها من ينكل به وينادى عليه.

تبب:

التب والتباب: الهلاك والخسران.

وتباً لك نصب على الدعاء كما تقول سقيا لك.

وفي حديث أبي لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا.

وقد مرَّ بنا هذا الدعاء في لغة التنزيل.

ترب:

يقال: تربا له وجندلا، وهذا من الأسماء التي تفيد الذات أجريت مجرى المصادر المنصوبة على اضمار الفعل غير المستعمل اظهاره في الدعاء.

وكأنه بدل من قولهم:

تربت يداه وجندلت.

وفي الحديث: «ان النبي - ﷺ - قال: تنكح المرأة لميسمها ولمالها ولحسبها

فعليك بذات الدين تربت يداك».

قال أبو عبيد: قوله: تربت يداك، يقال للرجل إذا قل ماله: قد ترب أي افتقر، حتى لصق بالتراب.

ومنه قوله تعالى: أو مسكينا ذا متربة.

قال: ويرون ان النبي - ﷺ - لم يتعمد الدعاء عليه بالفقر، ولكنها كلمة جارية على ألسن العرب يقولونها، وهم لا يريدون بها الدعاء على المخاطب ولا وقوع الأمر بها.

وقيل معناها: لله درك، وقيلَ: أراد به المثل ليرى المأمور بذلك الجد، وأنه ان خالفه فقد أساء.

وقيل: هو دعاء على الحقيقة، فإنه قد قال لعائشة - رضي الله عنها: تربت يمينك، لانه رأى الحاجة خيرا لها.

قال: والاول الوجه. ويعضده قوله في حديث خزيمة رضي الله عنه: أنعم صباحا تربت يداك، فان هذا دعاء له وترغيب في استعماله ما تقدمت الوصية به. ألا تراه قال: انعم صباحا، ثم عقبه بقوله: «تربت يداك».

وكثيرا ما ترد للعرب ألفاظ ظاهرها الذم وإنما يريدون بها المدح كقولهم: لا أب لك، ولا أم لك، وهوت أمه، ولا أرض لك، ونحو ذلك.

وقال بعض الناس: ان قولهم: تربت يداك يريد به استغنت يداك.

قال: وهذا خطأ لا يجوز في الكلام، ولو كان قال لقال: أتربت يداك.

ترك:

والتريك: العذق إذا نفض فلم يبق فيه شيء، ولا بارك الله فيه ولا تارك ولا دارك كله اتباع.

وجاء في أراجيزهم المشهورة في شواهد العربية:

لقد رأيت عجبا مذ أمسا

عجائزا مثل السعالي خمسا
يأكلن مافي رحلهن همسا
لا ترك الله لهن ضرسا
ولا لقين الدهر الا تعسا

تعس:

لقد مر بنا في قوله تعالى:
« فتعسا لهم وأضل أعمالهم ».
وأصل التعس: العثر.
وقال الشاعر:

وأرماحهم ينهزنهم نهز جمة يقلن لمن أدركن تعسا ولا لعا

على أن استعمال « التعس » وارادة الدعاء فيه قد بقي في اللغة المعاصرة وإن جهل المعربون أنه دعاء، فيقال مثلا: تعسا لك.

ويقال: تعسا له ونكسا.

والنكس والنكاس: العود في المرض.

وفي حديث أبي هريرة: « تعس عبدالدينار وانتكس، أي انقلب على رأسه، وهو دعاء عليه بالخيبة.

توس:

ويقال: توسالك، مثل قولهم: بوسا لك، وقد مر بنا ذلك.

توب:

التماس التوبة في أحاديث الدعاء كثير، كقولهم: اللهم اغفر لنا ذنوبنا وتب علينا...

وفي دعاء السفر: يقال:
توباً لربنا أوبا، أي توباً راجعاً مكرراً.

ثكل:

يقال في الدعاء على رجل:

ثكلتك أمك.

والثكل: الموت والهلاك. والأم ثاكل وثكول وثكلى.

وفي الحديث أنه قال لبعض أصحابه: ثكلتك أمك أي فقدتك، والثكل فقد الولد.

ولا يقال: ثكلك أبوك.

على أنه يقال في الدعاء: لا أب لك كما يقال لا أم لك.

وقال أبو علي: «لا أبا لك» كلام جرى مجرى المثل، وذلك انك إذا قلت هذا فإنك لاتنفي في الحقيقة أباه، وإنما تخرجه مخرج الدعاء عليه، أي أنت عندي ممن يستحق أن يدعى عليه بفقد أبيه، وأنشد توكيداً لما أراد من هذا المعنى قوله:

ويترك أخرى فردة لا أخا لها.

ولم يقل: لا أخت لها، ولكن لما جرى هذا الكلام على أفواههم: لاأبا لك، ولا أخا لك، قيل مع المؤنث على حد مايكون عليه مع المذكر، فجرى هذا نحوا من قولهم لكل أحد من ذكر وأنثى أو اثنين أو جماعة:

الصيف ضيعت اللبن.

ويؤكد عندك خروج هذا الكلام مخرج المثل كثرته في الشعر، وأنه يقال لمن له أب ولمن لاأب له، لأنه إذا كان لاأب له لم يجز أن يدعى عليه بما هو فيه لا محالة، ألا ترى أنك لاتقول للفقير أفقره الله، فكما لايقول لمن لا أب له: أفقدك الله أباك، كذلك تعلم أن قولهم لمن لا أب له: «لاأبا لك» لاحقيقة لمعناه مطابقة للفظه، وانما هي خارجة مخرج المثل على مافسره أبو علي، قال عنترة:

فاقني حياءك لاأبا لك! واعلمي ... اني امرؤ سأموت، ان لم أقتل

وقال المتلمس:

ألـق الصحيفـة، لاأبـا لـك، انـه	يخشى عليـك مـن الحبـاء النقـرس

ويدلك على أن هذا ليس بحقيقة قول جرير:

يـا تيم تيم عـدي لاأبـا لكـم	لا يلقينكـم في سـوءة عمـر

فهذا أقوى دليل على أن هذا القول مثل لا حقيقة له، ألا ترى أنه لايجوز أن يكون للتيم كلها أب واحد، ولكنهم أهل للدعاء عليه والاغلاظ له؟

وروي عن النضر بن شميل: أنه سأل الخليل عن قول العرب: لا أبا لك، فقال: معناه لاكافي لك.

وقال الفراء: قولهم: «لا أبا لك» كلمة تفصل بها العرب كلامها.

أقول: ومقالة الفراء ذات قيمة ولو أنك قرأت قول زهير:

سئمت تكاليف الحيـاة ومـن يعش	ثمانين حولا، لا أبـا لـك، يسأم

أحسست أن قوله: «لا أبا لك» كلام معترض لا يدل على خصوصية معنوية، بل هو تعبير جميل استحسنوه فاستعملوه كثيراً وأقيم به الوزن في البيت.

ألا ترى أن قولهم في الشعر: هديت ووقيت ونحوها شيء يتم به الوزن وليس من ارادة للدعاء.

أما قولهم: لا أم لك فقد ورد في حديث ابن عباس أنه قال لرجل: «لا أم لك»: هو ذم وسب، أي أنت لقيط لا تُعرف لك أم، وقيل قد يقع مدحاً بمعنى التعجب منه.

أقول: وهذا الشيء الأخير، وهو أن عبارة الذم الدعائية يراد بها المدح، جارية في الألسن العامية الدارجة، ألا تراهم يقولون: يخرب بيتك، أو انهجم بيتك، أو الله يلعنك إرادة المدح على طريقة التعجب؟

ثلب:

والاثلب أو الاثلب: التراب.

وقالوا: بفيه الاثلب على الدعاء، كأنهم قالوا بفيه التراب أو الحجر.

وقالوا: الاثلب لك والتراب، والنصب على الدعاء كأنه مصدر.

وهكذا نرى أن «التراب» وما في معناه أو يقرب منه قد دخل في اللغة القديمة في السب والشتم والذم فخرج على الدعاء، وقد مر بنا قولهم: تربت يداك.

جحد:

والجحد: القلة من كل شيء.

ونكداً له وجحداً دعاء عليه.

جرب:

والعرب تقول في دعائها على الانسان: ماله حرب وجرب.

والحرب كالكلب، وقوم حربى كلبى والفعل كالفعل.

والجرب معروف.

جندل:

انظر: تربا وجندلا الذي مرَّ بنا قبل صفحات.

جوس:

أنظر «بؤس».

حرب:

أنظر جرب.

حرر:

تقول العرب: ماله أحر الله صدره، وذلك في الدعاء على الانسان.

ويقولون أيضا.

رماه الله بالحرة والقرة، أي بالعطش والبرد.

حلق:

ومما يدعى على المرأة قولهم: عقرى حلقى، وعقرا حلقا أي عقرها الله وحلقها أي حلق شعرها أو أصابها وجع في حلقها.

حوب:

قالوا: إليك أرفع حوبتي أي حاجتي، وفي رواية: نرفع حوبتنا إليك.

وفي الدعاء على الإنسان:

ألحق الله بك الحوبة، أي الحاجة والمسكنة والفقر.

حوج:

يقال للعاثر: حوجا لك أي سلامة، وقد مربنا هذا.

خضر:

ويقال في الدعاء: أباد الله خضراءهم، أي سوادهم ومعظمهم، وقيل: خصبهم وسعتهم.

وقالوا أيضاً: رمى الله في عيني فلان بالأخضر، وهو داء يأخذ العين.

خطا:

في حديث ابن عباس: أنه سئل عن رجل جعل أمر امرأته بيدها فقالت: أنت طالق ثلاثا. فقال: خطأ الله نوأها ألا طلقت نفسها.

ويقال لمن طلب حاجة فلم ينجح: أخطأ نوؤك، أراد الله نوأها مخطئا لا يصيبها مطره.

ويروى: خطى الله نواها، بلا همز.

خلب:

وفي حديث الاستسقاء: اللهم سقيا غير خلب.

خير:

ومن دعائهم في النكاح: على يدي الخير واليمن.

ذرأ:

وجاء، أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق وذرأ وبرأ.

رفأ:

قالوا: بالرفاء والبنين في الدعاء للمملك وقد مر بنا أنظرها قبل صفحات.

رفح:

أنظر الموضوع نفسه (رفأ).

رقأ:

وروى المنذري عن أبي طالب في قولهم: لا أرقأ الله دمعته، قال: معناه لا رفع الله دمعته.

وفي حديث عائشة - رضي الله عنها - : فبت ليلتي لايرقأ لي دمع. ورقأت الدمعة ترقأ ورقوءا: جفت وانقطعت.

سحق:

ويقال: سحقا لهم أي هلاكا، وانظر ماجاء من هذا في لغة التنزيل مما أفاد الدعاء وقد ذكر قبل صفحات.

سلم:

مر بنا حديث «السلام» ودلالته في الدعاء في جملة آيات كريمة.

طمس:

مر بنا في الكلام على ما في آي القرآن من الدعاء.

طوب:

سبق الكلام على « طوبى لهم ».

ظبي:

(وانظر عدد):

وقولهم: به لابظبي، يراد به الهلكة كما ورد في قول الفرزدق يخاطب مسكينا الدارمي وكان قد رثى زياد بن أبيه فقال:

أمسكين، أبكى الله عينك انما ... جرى في ضلال دمعها فتحدرا
أقول له لما أتاني نعيه ... به لا بظبي بالصريمة أعفرا
أتبكي امرءا من آل ميسان كافرا ... ككسرى على عدانه أو كقيصرا

عثج:

وجاء في تلبية بعض العرب في الجاهلية:

لاهم لولا أن بكرا دونكا
يعبدك الناس ويفجرونكا
مازال منا عثج يأتونكا

والعثج، بفتحتين،: الجماعة من الناس.

عقر:

أنظر « حلق ».

وجاء أيضاً:

وقالت أم سلمة لعائشة - رضي الله عنها - عند خروجها إلى البصرة:

سكن الله عقيراك فلا تصحريها، أي اسكنك الله بيتك وعقارك وسترك فيه فلا تبرزيه.

عمي:

قالوا: وإذا أرشدك انسان الطريق فقل:

لايعم عليك الرشد.

وهو دعاء له بالخير والهدى.

عمر:

وعمره الله وعمَّره أي أبقاه، على الدعاء.

غبط:

وجاء في الدعاء: اللهم غبطا لا هبطا، أي نسألك الغبطة ونعوذ بك أن نهبط عن حالنا.

غرب:

وجاء في دعاء ابن هبيرة:
أعوذ بك من كل شيطان مستغرب وكل نبطي مستعرب.

غضر:

ويقال أباد الله غضراءهم، أي سعتهم وخصبهم.

غفر:

غفار! غفر الله لها.

قال ابن الأثير: يحتمل أن يكون دعاء لها بالمغفرة أو إخباراً أن الله تعالى قد غفر لها.

غور:

وقالوا: غارهم الله بخير أي أصابهم بخصب وغيث.
وفي الدعاء: اللهم غرنا منك بغيث وبخير.

فدي:

ويقال: فدى لك أهلي، على الدعاء أي يفديك أهلي.
ويقال: فداك أبي كما يقال: فديت.
وكثيراً ما نقرأ: جعلت فداك.
وأنشد الأصمعي للنابغة:

مهلا! فداء لك الاقوام كلهم   وما أثمر من مال ومن ولد

ومنه قول نفيلة الأكبر الأشجعي (أزر):

ألا أبلغ أبا حفص رسولا   فدى لك من أخي ثقة ازاري

قتل:

أنظر ماجاء من أسلوب الدعاء في أدب القرآن الكريم.

قذي:

وجاء قول جميل:

رمى الله في عيني بثينة بالقذى   وفي الغر من أنيابها بالقوادح

قرر:

ويقال: اقر الله عينه، من القَرور وهو الماء البارد.

كثكث:

وروي عن صفوان بن أمية أنه قال يوم حنين عند الجولة التي كانت من المسلمين، فقال أبو سفيان: غلبت والله هوازن، فأجابه صفوان وقال:

بفيك الكثكث لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن.

كلأ:

وقال الشاعر:

ان سليمى والله يكلؤها   ضنت بزاد ماكان يرزؤها

لحي:

وفي حديث لقمان: فلحيا لصاحبنا لحيا أي لوما وعذلا، وهو نصب على المصدر كسقيا ورعيا.

وقال عنترة:

ألـم تعـلم لحـاك الله أنـي   أجـم إذا لقيـت ذوي الرمـاح

لقي:

أنظر « ترك » .

نفس:

وجاء في الدعاء: اللهم نفس عني، أي فرج عني ووسع علي.

نكد:

أنظر « جحد » .

هبل:

الهبل: الثكل، وهبلته أمه بمعنى ثكلته.

وهبلتك أمك على الدعاء.

وفي حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ حين فضل الوادعي سهمان الخيل على المقاريف فأعجبه فقال: هبلت الوادعي أمه لقد أذكرت به!

فالثكل هو الأصل في المعنى، ثم يستعمل في معنى المدح والإعجاب، يعني ماأعلمه وما أصوب رأيه.

وفي حديث الشعبي: فقيل لأمك الهبل.

هنأ:

وقالوا: هنئت ولا تنكأ، أي هناك الله بما نلت ولا أصابك وجع.

وقالوا: لاهناك المرتع، أي لا أصبت خيرا.

هوي:

وقال كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه:

هوت أمه ما يبعث الصبح غـاديـا   ومـاذا يـؤدي الليـل حتى يـؤوب

ومعنى هوت أمه أي هلكت أمه.

وما زال هذا الدعاء معروفاً لدى الامهات في العراق في لغتهن الدارجة حين يعلمن بوفاة شاب يقلن: ماتت أمه.

ويب:

كلمة مثل ويل يراد بها التعجب.

ويباً لهذا الأمر أي عجبا

وويبا لزيد مثل ويلا لزيد.

ومنه قول كعب بن زهير:

ألا أبلغـا عني بجيرا رسـالـة   علي أي شيء ويب غيرك دلكا؟

ويل:

كلمة مثل ويح إلا أنها كلمة عذاب، ومن هنا وردت في أسلوب الدعاء في قوله تعالى:

ويل للمطففين...

وقوله: ويل لكل همزة لمزة.

وفي آيات أخرى:

وقالوا: ويلمه والأصل: ويل لأمه فحذف اللام ثم الهمزة وركبت الكلمتان على طريقة النحت.

ومن أقوال النبي - ﷺ - : ويلمه مسعر حرب.

أقول: هذه نماذج بل شذرات من العربية مما استقريته من «لسان العرب» وغيره تشتمل على أسلوب الدعاء في العربية.

وعندي أن الألفاظ التي تقدم بين يدي الملك والأمير والرئيس والعالم الجليل وغير هؤلاء من أهل الشأن من أسلوب الدعاء في العربية المعاصرة نحو:

جلالة الملك.

ومعالي الوزير.

وسيادة الرئيس أو فخامته.

وسعادة الأمير.

وسماحة العالم، ونيافة الحبر.

وبعد ألم يتوصل النابغة الذبياني إلى النعمان مخاطبا بقوله:

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني وتلك التي تستكّ منها المسامع

ثم اني قد وجدت من فيض هذه العربية السمحة مايحق للمرء أن يملأ ماضغيه فخراً إذا قرأ مستمتعاً بعض ما ورد من بيان التوحيدي في «اشاراته الإلهية» فوجد من مادة الدعاء أعلاق العربية النفيسة.

اللهم إني قد خدمت كتابك الكريم واللغة العلية التي جاءت فيه فاكتبني مع الصالحين.

أسلوب النداء في لغة التنزيل

كنت قد أسلفت الكلام على أسلوب الدعاء ورأيت أن العلم يفرض علي أن أكمل هذا النهج فأعرض لباب النداء في العربية وما يتيسر لي فيه من قول مبتدئاً بشيء مما قاله الأوائل من النحويين ومنتهياً بما كان لي من نظر بعد الاطلاع على جملة أساليب هذا الباب.

لا أريد أن أدخل في النداء وفصوله على نحو ما عرض له النحويون من البناء والإعراب وأحوال المنادى علماً ونكرة مقصودة وغير مقصودة ومضافاً وشبيهاً بالمضاف، كما لا أريد أن أعقب عليه بما ذكروه من تابع المنادى في قولهم يازيدُ صاحبَ عمرو ونحو ذلك فأدخل في وجوهٍ من القول تنفِّرُ العربية السمحة للدارسين.

أقول: النداء دعاء يتأتى بإحدى أدوات النداء وهي ثماني أدوات: الهمزة، وأي، مقصورتين وممدودتين، ويا، وأيا، وهَيا، ووا، وأعمهّا «يا» وهي تدخل على كل نداء.

أقول: لقد تصور النحويون أن اسلوب النداء يدخل في باب المنصوبات وذلك أنهم فسّروا قولهم: ياعبدَالله يراد به أدعو عبدالله.

وكأنهم أرادوا أن يقولوا ان «المنادى» في حقيقته ضرب من المفعول فكأن «يا» عوض من الفعل «أدعو».

وهذا أمر غريب ومصدر غرابته أنهم جعلوا قولنا « يا عبدالله » جملة فعلية هي « أدعو عبدالله »، وإذا كان هذا فينبغي أن يكون « ياعبدالله » جملة خبرية وليس هذا حاصلاً.

ان النداء ضرب من الطلب، والطلب يدخل في باب « الإنشاء ».

وفي قولهم هذا إغفال لحقيقة وذلك إنك حين تنادي أحداً تعقب ذكره بشيء تطلبه، ومن أجل ذلك دخل النداء في أسلوب الدعاء. ألا ترى انك لا تقول: ياالله أو اللهم إلا أعقبت لفظة الجلالة بفعل أمر خرّج على الالتماس والرجاء ونحو ذلك مما يترشح من أسلوب الدعاء فتقول:

« اللهم ارحمني وأعف عنيّ ».

فإذا قلنا بالتفسير النحوي لم نصل إلى مانريد. وإذا قرأنا قوله تعالى:

« يايحيي خذ الكتاب بقوة » ١٢ سورة مريم.

« يوسفُ أعرض عن هذا » ٢٦ سورة يوسف.

أدركنا أن النداء شيء يفتقر إلى الحدث بعده، وهو الفعلان « خذ » و « أعرض » وعلى هذا لاسبيل إلى تفسير مايسمى بالاستغاثة نحو « ياالله للمسلمين » أو الندبة التي يصار إليها بالأداة « يا » قليلاً و « واو » كثيراً، وقد تكون « يا » للندبة إذا أمِن اللبس كما قالوا، وذلك كقول جرير يرثي عمر ابن عبدالعزيز:

نَعَى النعاة أميرَ المؤمنين لنا ... ياخير من حَجَّ بيتَ الله واعتمَرا

حملت أمراً عظيماً فاصطبرت له ... وقُمتَ فيه بأمر الله ياعُمَرا

فالشمس طالعةٌ ليست بكاسفةٍ ... تُبكي عليك نجومَ الليل والقمرا

وأريد أن أقف على ثلاثة الأبيات هذه فأقول:

إن النداء في قول الشاعر « ياخير من حجّ... » أسلوب في الإعراب يراد به إقرار حقيقة على وجه من وجوه القول يتأتى بالإنطلاق بـ « يا ». كما هو

أسلوب في ندبة من يتفجع عليه.

ومن أجل ذلك حسن هذا في باب الرثاء وما يتطلبه هذا الفن من اللوعة وإظهار الأسى. وليس شيء من النداء في مقام التوجع حين تقرأ قول المتنبي:

واحــرَّ قلبــاه ممن قلبُــه شَبِــمُ ومن بجسمــي وحــالي عنــده سَقَــم

ولا بد من وقفة مع الشريف الرضي في نغم من أنغام بكائه:

يـا قلــبُ جــدِّد كَمَــدا فمــوعــد البين غــدا
لم أر فــرقــاً بعــدهــم بين الفــــراق والردى
يــاكبــدي تجلّــداً فلا أطيــق الجَلَــدا
كنــت أُداري كبــدي لــو غــادروا لي كبــدا

ليس من شك أن أسلوب النداء شيء من لوازم العربية الأصيلة وهو ألصق مايكون بالأدب العاطفي تقرؤه في الرثاء والنسيب ومواطن أخرى.

وليس لنا أن نتأول فيه على نحو ماذهب إليه النحاة فنجرده من فحواه ونسلبه محاسنه.

أسلوب القسم في الشعر ولغة التنزيل

أقول: لعل من الخير أن نعرض لنماذج من فن القول في العربية على نحو يبتعد عن أساليب النحاة الأقدمين.

لقد فرض النحاة الأقدمون منهجاً خاصاً منطلقين من ظاهرة «الإعراب» وتفسيره وتعليله، فأسرفوا على أنفسهم في فهم كثير من نماذج العربية. وقد يكون من باب «التيسير» أن نذهب مذهباً آخر في فهم جملة من هذه النماذج على أنها من فنون القول وأساليبه كالقول في «التعجب» والقول في «المدح والذم» والقول في «الدعاء والنداء وما يلحقه من الاستغاثة والندبة»، وكذلك القول في «القسم». وهذه الأساليب لايمكن أن تنال حقها من حيث كونها أساليب تؤدي غرضاً معيناً، ان كنا اقتصرنا على تناولها على نحو ما عرض النحاة الأقدمون، ذلك أنها في حيز النحو القديم أدوات في القسم، فيها أحرف وأسماء وأفعال تقتضي أن يكون فيها جواب للقسم من صفاته كيت وكيت كما سنرى.

يرد القسم في كتب النحو في جملة موضوعات هي:

١ ـ في توكيد الفعل وجوباً وذلك إذا كان الفعل جواباً للقسم متصلاً بلام للقسم مستقبلاً مثبتاً نحو قوله تعالى: تالله لأكيدن أصنامكم.

فإن انخرم أحد هذه الشروط مثلا لم يجب التوكيد بل يجوز أن تقول مثلاً والله لأبذلَنّ وسعي الآن، فإن فصل بين اللام وبين الفعل فاصلٌ امتنع التوكيد فتقول: والله لسوف أعمل ما أستطيع.

ومثل ذلك إذا كان الفعل منفياً نحو قولك: والله لا أفعل هذا.

٢ ـ ويعرض لنا القسم في باب حذف المبتدأ وجوباً وذلك إذا كان الخبر

مشعراً بالقسم كقولك: في عنقي لأقومن بما يفرَض عليَّ.

٣ ـ ومثل هذا يأتي في باب حذف الخبر وجوباً نحو قولك لعمرك لأُفيدَنَّ علماً.

ولنبحث في الكلم الذي يعني القسم فنبدأ بالفعل «أقسم».

أقول: والإسم منه «القَسَم» وهو الحِلْف والحَلِفُ لغتان.

وقالوا الإِلُّ الحِلْف والعهد والذمّة.

وكذلك «اليمين» بمعنى القسم.

ولنعرض لهذه المواد فنقف على معناها واستعمالها فنقول: «القَسَم» معروف والفعل «أقسَمَ» وله أسلوب خاص ذكره النحويون فكان من مادته ما أشرنا إليه.

و«الحِلْف» والفعل منه حَلَفَ ويقال حَلَف بالله وهو قديم، قال امرؤ القيس:

حَلَفتُ لها بالله حَلْفَةَ فاجرٍ لناموا فما إن من حديثٍ ولا صالي

أما «الإلّ» فهو الحلف والعهد والذمة، وذهب أبو عبيدة في قوله تعالى: «لايرقُبون في مؤمنٍ إلّاً ولا ذمّة»[1] فقال: الإلّ من أسماء الله ـ عزّ وجلّ ـ وفي حديث أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ لما تُلِيَ عليه سجع مسيلمة: «انّ هذا لشيء ماجاء من إلٍ ولا برٍ فأين ذُهِبَ بكم».

وفي حديث لقيط: أنبئك بمثل ذلك في إلّ الله، أي في ربوبيّته وإلهيته وقدرته.

وجاء في الأثر أيضاً: ان يعقوب بن إسحاق كان شديداً فجاءه ملَك فقال: صارعني، فصارعَهَ فصرَعَه يعقوب، فقال له الملك اسرَ إلّ. وإلّ اسم من أسماء الله عزّ وجلّ ـ بلغتهم وسُمِّي يعقوب اسرَ إلّ بذلك، ولما عُرِّب قيلَ اسرائيل. والاسرُ الشدّة.

---

(١) ١٠ سورة التوبة.

أقول: وهذه الاشارات اللغوية في كلمة «إلّ» تفصح عن أن أصل هذه المادة أصل قديم عرف في اللغات السامية كالعبرانية والآرامية وماخلاهما من هذه اللغات القديمة كالبابلية وغيرها من لغات بلاد العرب شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً.

وهذا يعني ان العجز في جملة أسماء قديمة نحو جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل يعني «الاله».

وليس بعيداً ان يكون «إله» و «إل» مادة واحدة ولكن الاستعمال يُحدث في الأصول القديمة مايجعلها بعيدة شيئا مّا عن الوضع القديم. وإذا كانت «إل» مادة قديمة سامية وجدت في جميع تلك اللغات السامية، فمثلها كلمة «إله» قد ظهرت في جملة هذه اللغات.

وليس «إلوهيم» في العبرانية إلا هذا الذي نعرض له. وإذا كان «الإله» هو المخصوص بالعبادة، فقد يكون سهلاً علينا أن نفهم لِمَ سُمِّيت الشمس «إلاهة» في الأدب القديم.

وتصرّفت هذه اللغات في بنية هذه الكلمة فتحوّلت «إلّ» من صيغة المضاعف إلى شيء آخر قريب منها هو «إيل». وإذا كان ذلك فقد يكون من المفيد لنا ان نقف على الفعل «ألا» «يألو» الذي صار في الزيادة «آلَى».

ومن استعمال «آليت» يأتي معنى عَزَمت وأقسَمت، ولذلك قالوا: الإلُّ الحلف والعهد والذمة وكلها يشير إلى القسم.

وفي حديث أنَس بن مالك ان النبيّ - ﷺ - آلَى من نسائه شهراً، أي حَلَف لايدخل عليهن. وإنّما عدّاه بـ «من» حملاً على المعنى وهو الامتناع من الدخول.

ومن أدوات القسم في العربية «اليمين» فهو الحلف والقسم، وهو مؤنث والجمع أيمُن وأيْمان.

وفي الحديث يمينك على ما يصدِّقُك به صاحبك، أي يجب عليك ان تحلف

له على مايُصدِّقُك به إذا حلَفتَ له .

وأصل « اليمين » أنهم كانوا إذا تحالفوا ضَرَبَ كل امرىٍ يمينه على يمين صاحبه، ولذلك قال عمر لأبي بكر - رضي الله عنهما - : ابسُط يدَك أبايعْك .

وعلى هذا كانت دلالة « اليمين » على الحلف والقَسَم، ومن أجل ذلك أُنِّثَتْ بهذه الدلالة لتأنيثها في الأصل وهو اليد اليمين .

قال أبو عبيد كانوا يحلفون باليمين ويقولون: يمين الله لاأفعل .

وقال امرؤ القيس:

فقلتُ يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

وأراد: لاأبرح، فحذف « لا » وهي مطلوبة وذلك نظير قوله تعالى:

« تالله تفتؤ تذكر يوسف »[٢] والتقدير ما تفتؤ .

وتجمع اليمين على « أيمُن » في أسلوب القسم .

قالوا : وألفه ألف وصل نظير الالف في « ابن » و « اسم »، ولم يجىء في الأسماء ألف وصل مفتوحة غيرها .

وتدخل عليه اللام لتأكيد الابتداء فتقول: « لَيْمن الله » فتذهب الألف في الوصل، قال نصيب:

فقال فريق لما نشَدْتُهم نعم وفريق ليمُنُ اللهِ ماندري

وهذه عند النحاة مبتدأ حذف خبره وتقديره « قسمي » .

وإذا خاطبتَ قلتَ: ليْمُنُك، وفي حديث عروة بن الزبير أنه قال: لَيْمُنُكَ لئن كنتَ ابتَليتَ لقَد عافيتَ، ولئن كنتَ سلبتَ لقد أبقَيت . وربّما حذفوا النون فقالوا : أيْمُ الله وإيمُ الله (بكسر الهمزة)، وربّما حذفوا منه الياء فقالوا : أمُ، وربّما أبقوا الميم وحدها مضمومة، قالوا : مُ اللهِ، ثم يكسرونها

---

(٢) ٨٥ سورة يوسف .

لأنها صارت حرفاً واحداً فيشبهونها بالباء فيقولون: مِ الله، وربّما قالوا: مُنُ الله، (بضم الميم والنون)، ومَنَ الله (بفتحهما)، ومِنِ الله (بكسرهما).

وعرض ابن جني لهذه المادة فقال: أمّا «أيْمُن» في القسم ففُتحت الهمزة منها، وهي اسم من قِبَل أنّ هذا اسم غير متمكّن، ولم يستعمل إلاّ في القسم وحده، فلما ضارع الحرف بقلة تمكّنه فُتحَ تشبيهاً بالهمزة اللاحقة بحرف التعريف، وليس هذا فيه إلّا دون بناء الاسم لمضارعته الحرف.

وأيضاً فقد حكى يونس: إيم الله بالكسر.. .. ..

ويؤكد عندك أيضاً حال هذا الاسم في مضارعته الحرف أنّهم قد تلاعبوا به وأضعفوه فقالوا مرّةً: مُ اللهِ، ومرّةً: مَ اللهِ، ومرّةً مِ اللهِ، فلما حذفوا هذا الحذف المفرط من كونه على حرف إلى لفظ الحروف قوي شبَه الحرف عليه ففتحوا همزته تشبيهاً بهمزة لام التعريف.

انتهى كلام ابن جني.

أقول: ان حذف الهمزة في الوصل كما في قول عروة: «لَيْمُنُك» لايعين على أن نجعل همزة «أيمن» كهمزة «اسم» و «ابن» ونظائرهما، بل هي همزة قطع نظير همزة «أقبَلَ» لأنها همزة الجمع على «أفعلُ» نحو أشهرُ.

وإلى هذا ذهب ابن كيسان وابن درستويه فقالا: ألف «أيْمُن» ألف قطع وهو جمع يمين وانما خفِّفت همزتها وطُرحت في الوصل لكثرة استعمالهم لها.

وقالوا: العرب تقول: أيْمُ الله وهَيْمُ الله والأصل أيمن الله[٣].

ولنعد إلى مسألة «أيمن» وما قيل في أن ألفها ألف وصل الذي أشرنا والذي جاء في كتب النحو القديم فأقول:

ان ما أشار إليه ابن كيسان وابن درستويه من أن هذه الألف هي ألف قطع وليس ألف وصل صحيح جيد، والذي يبدو لي هو أن شيئاً غير سليم

(٣) اللسان (يمن)

قد عرض لكلمة « أيمن » فجرَّ ذلك إلى هذا الغلط الكبير وهو:

أن « أيمن » جمع « يمين » بمعنى الحلف والقسم كما أشرنا، وأنها جمعت على أيمان وأيمن مثل « عصر » وجمعها أعصار وأعصُر. وعلى هذا فالهمزة في « أيمن » هي همزة البناء أي همزة « أفعُل ». وإذا كنا قد انتهينا بيسر إلى هذه الفائدة فمن الواجب أن نقطع بأن همزتها همزة قطع ليس غير.

فكيف نقول في الذي أثِر عن النحاة واللغويين كما أشرنا من أن هذه الهمزة هي للوصل وهي في « أيمن » نظيرها في الأسماء الآتية:

ابن وابنة وامرؤ وامرأة واثنان واثنتان واسم واست، وقد حملوا على هذه همزة اداة التعريف إذا وردت في درج الكلام كقولنا مثلاً: كتاب الولد.

أقول: من غير شك أن « أيمن » هذه التي ألحقوها بجملة هذه الأسماء قد تأتّت من تصحيف « ابنمن » ولنقف قليلاً على هذه الكلمة الأخيرة.

ان « ابنُمُن » بمعنى « ابن » ولكنها لحقتها « الميم » وهذه « الميم » زيادة لم يفطن لها الأوائل في كونها لدى الجنوبيين من العرب أي أهل اليمن ومن جاورهم تقابل نون التنوين في العربية الشمالية، ولكنها لما سلكت السبيل من الجنوب إلى الشمال لم يدرك أهل الشمال حقيقة الميم فأبقوها مرسومة مع « ابن » بخلاف نون التنوين التي تلفظ ولا تُرسَم.

ثم إنهم لجهلهم بحقيقتها اللغوية أتبعوها بنون أخرى هي نون التنوين في العربية الشمالية، وكان حق هذه النون الأخيرة ألّا تُرسَم، ولكنها رسمت على سبيل السهو، فجاءت إلينا هذه الكلمة « ابنمن »، وأن همزتها هي همزة وصل لأنها لاتختلف عن أصلها « ابن ».

وإذا كان هذا فللدارس ان ينظر في رسم « ابنمن » ليدرك أن أمر تصحيفها إلى « أيمن » سَهل ووارد، وليس شيئاً عسيراً أمر هذا التصحيف وسببه اساءة الإعجام.

وإني إذ أطمئن إلى اجتهادي هذا لأعجب كيف درج الناس على هذا

الخطأ، ولم يفيدوا مما ذكره ابن كيسان وابن درستويه؟ هذا عجب من العجب!

والقسم قديم في العربية، فهو أسلوب نجده في العربية الجاهلية كما نجده في العربية الإسلامية. وإذا كان الحلف بالله معروفاً في العربية الجاهلية كما مرّ بنا في قول امرىء القيس فذلك شيء يتأتى من أن المعرفة بالله كانت موجودة قبل الإسلام، قال امرؤ القيس:

فاليومَ أشرَبْ غير مُستَحقِبٍ إثماً من الله ولا واغلِ

وفي شعر أمية بن الصلت مايشير إلى المعرفة الأصيلة للجاهليين بالله، وقول لبيد مشهور وهو:

ألا كلُّ شيءٍ ماخلا اللهَ باطلُ وكلُّ نعيمٍ لامَحالةَ زائلُ

وهذه المعرفة الواضحة للذات الإلهية موجودة في كثير من النصوص الجاهلية. وإذا كان هذا فلا بد أن يكون القسم بـ «الله» معروفاً على نحو ما ورد في شعر امرىء القيس كما بينا.

وإذا كان القسم بالله معروفاً في الجاهلية فإن ذلك لاينفي ان يكون القسم بغير الله معروفاً أيضاً كالقَسَم باللات والعُزّى وغير ذلك من آلهتهم وأنصابهم. وكما كان من أعلامهم «عبدالله» كان منها أيضاً عبداللات، وعبديغوث، وعبدشمس، وعبدالدار، وعبدالشارق، وعبدالكعبة وغير ذلك.

ولنعد إلى ألفاظ القسم لنقف على نماذج هذا الاسلوب كما وردت في شعر العرب ونثرهم: لقد أقسموا بكلمة «عُمْر» ودلالتها معروفة فصدروها بلام فكانت للابتداء وكانت من حواشي أداء هذا الأسلوب. وإذا كانت كلمة «عُمر» مضمومة الفاء فهي مفتوحتها في هذا الأسلوب من القسم، ولا تكون فيه إلا مفتوحة الفاء، وذلك في الدعاء. وقد أقسموا بكلمة «العمر» هذه فجاء في شعرهم قول الشنفرى مثلاً:

لعمرُك مافي الأرض ضيق على امرىءٍ سَرَى راغباً أو راهباً وهو يعقل

وقول النابغة:

فلا لعَمـر الذي مَسحَّتُ كعبتَـه   وما هُريق على الأنصاب من جَسَـدي

وقول الأعشى:

لعَمْري لقد لاحَـتْ عيـونٌ كثيرة   إلى ضـوء نـارٍ بـاليَفـاع تحرَّقُ

وقول طرفة:

لعمرُكَ إنّ الموتَ مـا أخطـأ الفتى   لكالطِّوَل المُرخَـى وثِنْيـاه بـاليـدِ

وقول عمرو بن معديكرب الزبيدي:

وكـلٌّ أخٍ مفـارقـه أخـوه   لعَمْـرُ أبيـك إلاّ الفَـرقـدانِ

وقول أبي بصير:

لعمـر أبيـكَ مـانُسِـبَ المُعَلَّـى   إلى كَـرَمٍ وفي الدنيـا كـريم

أقول: ولم نجد في هذا الأسلوب من القسم ماورد في كتب النحو في قولهم مثلاً: لعمرُك لأُساعدَنَّ أخي.

وهو مجيء الاسلوب مشتملاً على جواب للقسم وهو الفعل المضارع المؤكد بالنون وجوباً لأنه كما أشرنا مثبت مستقبل متصل باللام غير مفصول عنه بفاصل.

ولا بد أن نقف قليلاً على أسلوب القسم في هذه النماذج لنقول: كأنّ القسم خير مقصود في معناه الأصيل وهو الحلف أو اليمين، فلم يكن إلاّ طريقة في التعبير استحسنوها على أنها لون من ألوان لوازم الأدب القديم ولا سيما في الشعر. وليس من شكّ ان القائل لأيٍء من هذه النماذج ماكان ليريد ان يحلف بالعمر ليثبت قولاً له، وليس له من حاجة في إطلاق يمين يلجأ إليها وهو محرج في إثبات مقولة.

ومثل هذا الحلف بمواد أخرى كالحلف بالعيش مثلاً كما في البيت المنسوب إلى المجنون:

بعيشكَ هـل ضمَمْـتَ إليـكَ ليلى   قُبَيْـلَ الصبـح أم قبَّلـتَ فـاهـا

فلو أن الشاعر قال مثلاً:

« نَشَدْتُكَ هل ضممت اليك ليلى » لكان له ماأراد مما ذكر في البيت من أسلوب القسم.

وهذا يعني أن الشاعر غير مُحرَج في قوله فيستعين على ذلك بالقسم. وإذا لم يكن هذا هو التفسير لهذه النماذج من أسلوب القسم فكيف نفهم القسم في قول ديك الجنّ:

فَوَحَقِّ نَعْلَيْها وما وَطِيءَ الثَّرَى شيء أعزُّ عليَّ من نَعْلَيْها

وقد ورد أسلوب من القسم في كتب النحو القديم في باب حذف المبتدأ فقالوا: إذا كان الخبر مشعراً بالقسم نحو:

في ذمّتي لأُسدينَّ لك معروفاً، والتقدير: في ذمتي يمين أو قَسَم. ونحو قولهم: في عُنُقي لأقومَنَّ بالواجب.

أقول: ان هذا الضرب من الجمل أسلوب في القسم، وهو مفيد أي أنه جملة حصلت بها الفائدة، فهل لي أن أقول: ان تقدير النحاة للمبتدأ المحذوف ضرب من التزيد؟ وعندي ان قولهم: ان الحذف واجب لايسقط مقولتي في أن التقدير تزيُّد وافتعال. وهذا نظير قولهم في حذف الخبر وجوباً إذا كان المبتدأ صريحاً في القسم كما أشرنا في قولهم مثلاً: لعمرُك لافيدَنَّ علماً.

قلت: ان القسم وَرَد في شعر العرب طريقةً من طرائق الأسلوب الأدبي القديم، وليس في ذلك شيء من إرادة الحلف أو اليمين ولنستمع إلى قول البحتري لنتبين أن القسم من فنون القول الأدبي:

عذيري فيكِ من لاحٍ إذا ما ذكرتُ الشوقَ حرَّقَني ملاما
فلا وأبيك ماقارفت ذنباً ولا قارفت في حُبِّيك ذاما

إن « لا » التي صُدِّرَ بها القسم من الأدوات التي تزاد لتحسين القول في زيادة النفي، ومن هنا قالوا: إنها زائدة إرادة التوكيد الذي يراد فيه تحسين

القول .

وكيف نصل إلى حقيقة القسم وهي الحلف واليمين ونحن ننشد قول المتنبي :

بما بعينيكِ مـن سُقْـمٍ صِلي دنفـاً يهوَى الحياةَ وإمّا إنْ صـدَدتِ فلا

لقد فُرِّغَ هذا القسم من حقيقته في أداء اليمين فصار ضرباً من أسلوب قديم اعتمده الشعراء لما وجدوا فيه من لون جميل، وإلا فأين « القسم » بالسقم في عيني امرأة؟ وظل هذا الأسلوب من القسم في الشعر طوال العصور، ولا نعدم أن نجد شيئاً من بقاياه في شعر طائفة من شعراء العراق فإننا نجد من ذلك قول الجواهري من قصيدة في رثاء أحدهم:

قَسَماً بيـومـكَ والفـرات الجاري والثـورةِ الحمـراء والثـوّارِ

قَسَماً بتلـك الحادثـات ولم يكـن لي مـن يمين قبلهـا بـالنـار

ولعل من المفيد أن نسجل ان هذا الاسلوب قد شاع في شعر الشيعة، فمن ذلك قول أحدهم:

أمـا وهـوىً ملكـتِ بـه فـؤادي وليس وراء ذلـك مـن يمين

يمينـاً مـاسلـوتُكُـمُ يمينـاً وشَلَّـتْ إن سَلَـوتُكُـم يميني

وليس من شك ان الشاعر في عصرنا والعصور التي سلفت لم يكن في حرج من أمرٍ يلزمه الحلف واليمين، ولكنه وجد في هذه اللوازم من « القسم » مادة تزين فنّه بما يستمتع به قارئه وسامعه، وإلا فأين حقيقة « القسم » في قول أبي الطيب في مطلع إحدى قصائده:

بـأبي الشمـوس الجانحات غـواربـا اللابسـات مـن الحريـر جلاببـا

وهل يكون أسلوب القسم إلا شيئاً مما يلجأ إليه الشاعر من اللوازم المعترضة إرادة التحسين كما كانوا يلجأون إلى شيء من ذلك إرادة الدعاء، وليس قول الشاعر المعاصر إلاّ شيئاً من ذلك:

إني وحقّـك مـاأزال على هــوىً أصفيـه ذوبَ مـواجعـي وحنيني

وهذا الأسلوب من القسم هو لون من لوازم الأدب القديم فلم يكن الشاعر

محتاجاً إلى أن يحلف وما أبعد مقاماته وظروفه عن الحلف واليمين. وإذا عرفنا ان المسلمين لايرتضون الحلف أو القسم إلا بالله، أدركنا أن هذه الأشتات التي نجدها في الأدب القديم قد تفرغّت من المعنى المراد من القسم.

ولعلنا ندرك هذه الحقيقة ونحن نسمع العامة في عصرنا يشركون الذات الإلهية في حديثهم وليس من موجب للقسم، فإذا انطلق أحدهم على فطرته وسجيته قال: (والله راح أعمل شيء... والله كنت مريض، والله رأيتك البارحة...) وليس في مجموع هذا وأمثاله مايدعو إلى هذه «التكأة» من القسم. وحرام علينا ألا نكرم الخالق العظيم فنحشره في تفاهات من لغط الحياة اليومية.

وبعد فلنعرض لمادة القسم في كلام الله تعالى فنقول:

قال - عز من قائل:

تاللهِ لأكيدنَّ أصنامكم (٥٧ سورة الأنبياء).
تاللهِ لتُسألُنَّ عما كنتم تَفترون (٥٦ سورة النحل).
فوربِّك لنحشرنهَّم والشياطين (٦٨ سورة مريم).

وفي هذه الآيات أسلوب القسم كما ذكره النحاة في باب توكيد الفعل بالنون بحسب الشروط التي ينبغي توفرها وقد أشرنا إلى ذلك.

على أن في القرآن من مادة القسم شيئاً آخر نجده في قوله تعالى:

تاللهِ إنْ كِدت لَتردِين (٥٦ سورة الصافات).
فلا وربِّك لايؤمنون حتى يُحكِّموك فيما شَجَرَ بينهم (٦٥ سورة النساء).
وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم (١٠٩ سورة الأنعام).
قالوا تقاسَموا بالله لَنُبيِّتنَّهُ وأهله (٤٩ سورة النمل).
ويحلفون بالله إنهّم لمنكم (٥٦ سورة التوبة).

وفي هذه الآيات قسم صريح هو في الأولى لم يتبعه توكيد للفعل المتصل بلام القسم، وفي الثانية سبق بـ «لا» وهي زائدة موكدة للجواب المنفي بـ

« لا »، وفي الثالثة والرابعة جاءت صراحة القسم بالفعلين: أقسموا وتقاسموا، وفي الخامسة صرّح بالقسم بالفعل « حلف ».

وكان النحويون على حق حين قرنوا القسم بالتوكيد وذلك لأنّ القسم يقتضي أن يكون في الكلام نمط من القوة يُؤدّى بالتوكيد في أساليبه المختلفة كأن يلحق القسم جملة مصدرة بـ « أنّ » مثلاً كقوله تعالى: قالوا تالله إنّك لفي ضلالك القديم (٩٥ سورة يوسف).

وفي كتاب الله نماذج من القسم لم ترد إلا فيه، وليس غريباً ان يقسم « الحقّ » بآياته التي خلقها في هذا الكون الواسع كالسماء والنجم والليل والفجر والعصر ونحو ذلك من آياته التي دلت عليها بما أفرغ فيها من حكمته وقدرته، قال تعالى:

والطورِ، وكتاب مسطور (١، ٢ سورة الطور).

والنجمِ إذا هَوَى (١ سورة النجم).

والنازعات غَرقاً ● والناشطات نشطاً ● والسابحات سَبْحاً ● فالسابقاتِ سَبْقاً ● فالمدبِّرات أمراً (١، ٢، ٣، ٤، ٥ سورة النازعات).

والمُرسَلاتِ عُرفاً ● فالعاصفات عَصفاً ● والناشراتِ نشراً ● فالفارقاتِ فَرْقاً ● فالملقيات ذكراً (١، ٢، ٣، ٤، ٥ سورة المرسلات).

والسماء ذات البروج ● واليوم الموعود ● وشاهد ومشهود (١، ٢، ٣ سورة البروج).

والسماء والطارق (١ سورة الطارق).

والفجر ● وليالٍ عَشرٍ ● والشَّفعِ والوَترِ ● والليل إذا يَسرِ ● (١، ٢، ٣، ٤ سورة الفجر).

والشمسِ وضحاها ● والقمَرِ إذا تَلاها ● والنهارِ إذا جَلاّها ● والليل إذا يغشاها ● والسماءِ وما بناها ● والأرض وما طحاها ● ونفسٍ وما سوّاها (١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦ سورة الشمس).

والليلِ إذا يغشَى ● والنهارِ إذا تَجَلَّى ● وما خَلَقَ الذكر والأنثى ● (١ ، ٢ ، ٣ سورة الليل).

والضُّحى ● والليل إذا سَجَا ● (١ ، ٢ سورة الضحى).

والتين والزيتون ● وطور سينين ● وهذا البلد الأمين ● (١ ، ٢ ، ٣ سورة التين).

والعاديات ضَبْحاً ● فالموريات قَدْحاً ● فالمغيرات صبحاً ● (١ ، ٢ ، ٣ سورة العاديات).

والعصر ● إن الإنسان لفي خُسرٍ ● (١ ، ٢ سورة العصر).

وقد جاء القسم في جملة آيات في السور التي صدِّرت بأحرف هي أسماء للسور كقوله تعالى:

يس ● والقرآن الحكيم (١ ، ٢ ، سورة يس).

ص ● والقرآن ذي الذكر (١ سورة ص).

حم ● والكتاب المبين (١ ، ٢ سورة الدخان).

ق ● والقرآن المجيد (١ سورة ق).

وجاء القسم مصدراً بـ «لا» وليس معناها النفي بل تأكيد للقسم كقوله تعالى:

لا أقسِمُ بهذا البلد (١ سورة البلد).

لاأقسِمُ بيوم القيامةِ (١ سورة القيامة).

وقد ذهب النحويون والمفسرون في كثير من الآيات إلى تقدير «قَسَم» اعتماداً على شيء من لوازمه في الآية كوجود اللام في «لئن» التي أسموها «موطئة» للقسم أو وجود التوكيد في الفعل أو لام القسم.

أقول: قد يكون لنا أن نقدر هذا القسم معتمدين مثلاً على أن «لئن» قد يسبقها القسم كما في قوله تعالى: «وأقسَموا بالله جَهْدَ أيمانهم لئن جاءتهم آية ليُؤمِنُنَّ بها» (١٠٩ سورة الأنعام).

غيرأني أقول: هل لنا أن نقدّر هذا القسم المتصوَّر في كل آيةٍ جاءت فيها «لئن»؟ لعلي أميل إلى أن جمهرة الآيات التي جاءت فيها «لئن» أريد لها التوكيد من غير القسم! وإذا عرفنا ان مقتضى الحال يستدعي التوكيد في كثير من آي الذكر الحكيم كان لناأن نفترض ماذهبنا إليه.

ولنعرض لطائفة كبيرة من هذه الآيات التي جاءت في أسلوب التوكيد والتي ذهب النحويون وغيرهم إلى تقدير القسم.

قال تعالى:

لئن أُخرجتم لنخرجَنَّ معكم ولا نطيع فيكم... (١١ سورة الحشر).

ولئن قُتِلتُم في سبيل الله أو مُتُّم لمغفرة من الله ورحمة... (١٥٧ سورة آل عمران).

ولئن مُتُّمْ أو قُتِلْتُمْ لإلى الله تحشرون.. (١٥٨ سورة آل عمران)

لئن شَكرتُم لأزيدنَّكم ولئن كفرتُم إنّ عذابي لشديد (٧ سورة الأنبياء).

لئن أَخَّرتَنِ إلى يوم القيامة لأحتَنِكَنَّ ذُرِّيَتَه إلاّ قليلا (٦٢ سورة الإسراء).

هذه نماذج من الآيات مما ورد فيها كلمة «لئن» فقدر القسم. غير أن النحاة قدّروا القسم مع خلو الآيات من كلمة «لئن» معتمدين على مجيء الفعل مؤكداً أو وجود اللام الموكدة التي جعلوها للقسم أيضاً كقوله تعالى:

ولَتَعلَمُنّ أيّنا أشدُّ عذاباً وأبقَى (٧١ سورة طه).

ولولا أجَلٌ مُسمًّى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتةً (٥٣ سورة العنكبوت).

ثم جاءكم رسول مصدّق لِما معكم لَتُؤمِنُنَّ به ولَتَنْصُرُنَّه (٨١ سورة آل عمران).

وإن منكم لمن لَيُبَطِّئَنَّ (٧٢ سورة النساء).

والذين هاجروا في الله من بعدما ظُلِموا لنبوِّئَنَّهم في الدنيا حسنة (٤١ سورة النحل).

ولنَبْلُونَّكم حتى نعلمَ المجاهدين منكم (٣١ سورة محمد).
وقال الذين كفروا لرسلهم لنُخرجنَّكم من أرضنا (١٣ سورة إبراهيم).
ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآياتِ ليَسجُنُنَّه حتى حين (٣٥ سورة يوسف).

وقد يكون لنا أن نجتهد في النص فنجد فيه مايكافىء القسم في القوة فنحكم على الفعل الموكّد بالنون أنه جواب قسم محذوف كقوله تعالى:

وتمّت كلمة ربك لاملأن جهنّم من الجِنَّة والناس أجمعين (١١٩ سورة هود).
وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيَستخْلِفَنَّهمْ في الأرض (٥٥ سورة النور).

وأخلص من هذا العرض الوافي إلى أن التوكيد أسلوب، وقد يكون من لوازمه أن يكون في القول قسم، على أن التوكيد قد يأتي كثيراً وليس فيه شيء من القسم، قال تعالى:

فإمّا تَرَيِنَّ من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً (٢٦ سورة مريم) ومثل هذه الآيات مما يبدو فيها التوكيد الكثير من لغة التنزيل ولايمكن ان نقدر فيها شيئاً من القسم.

خاتمة:

لقد اجتهدت أن أعرض في هذا الموجز إلى أسلوب من أساليب العربية هو أسلوب القسم غير مقيد هذه المادة التي لانعرفها إلا في الكتب النحوية بما قيده بها النحويون لأشير إلى أن طائفة من هذه الأساليب قد نكون مقصرين في فهمها إن اقتصرنا على المباحث النحوية القديمة. والله الموفق للصواب.

أسلوب التوكيد
في
لغة التنزيل

التوكيد من المصطلح النحوي القديم الذي يندرج في غير موضع من المواضع النحوية فهو شيء من التوابع تارة في باب التوكيد اللفظي والمعنوي، وهو شيء آخر في توكيد الفعل «المضارع» بالنون تارةً أخرى. وفي جملة ذلك كله شروط ينبغي أن تراعى وألفاظ خاصة ولوازم أخرى يقتضيها الكلام.

ولا أريد في هذا المبحث أن أقول شيئاً في هذه المادة النحوية فقد بسط النحاة فيها القول وشرحوا وعلقوا فليس لمستزيد فيه زيادة. ولكني سأذهب مذهباً لايعنيني فيه ماكان النحويون قد ذهبوا إليه من أمر الجملة ومايعرض لها من تراكيب وما يكون في المسند والمسند إليه من أحكام في الإعراب وأحوال في البناء

والذي أقوله: إن شيئاً ليس بالقليل مما جاء في كتب النحو كان ينبغي ان ينظر إليه على أنه أسلوب خاص من الأساليب العربية. ومن الخير أن ينظر في هذا الباب في لغة التنزيل العزيز لنتبين الأساليب العربية على النحو الجلي الفصيح الذي ورد في هذه اللغة العالية. ولولا أن النحاة قد شغلوا بالاعراب وماعرض للجملة العربية في تراكيبها من المسند والمسند إليه لكانوا قد أدركوا أشياء أخرى قد تبتعد عن مادة النحو فتكون شيئاً من الدرس القرآني، ولكان لهم من اجتهادهم شيء يغنى به النحو.

ولما كنت قد عرضت في الفصل السابق إلى القسم فاستقريته في لغة التنزيل

كان علي أن أعرض لأسلوب التوكيد الذي يرتبط بأسلوب القسم. ولقد هديت إلى أن هذه الأساليب من لوازم لغة التنزيل ذلك أني استقريت الكثير من كلام العرب في جاهليتهم وإسلامهم فلم أر أحفل بهذه الألوان الفنية من لغة القرآن. ولم أجد شيئاً كثيراً من ذلك في غير هذه اللغة العلية. وحسبك أن تدرك أن أسلوب التوكيد قد ابتعدت عنه العربية المعاصرة شعراً ونثراً حتى أوشكت أن تخلو منه.

قلت يأتي اسلوب التوكيد في حشو جملة القسم، وكنا قد أشرنا إلى الشروط التي استقراها النحاة في وجوب هذا الضرب من التوكيد، وبحسبنا أن نعرض لشيء من هذا الأسلوب كما ورد في كلام الله - جل وعلا -.

وقد كنا أشرنا في الفصل السابق الذي صرفناه إلى أسلوب القسم إلى الآي المشتمل على القسم الذي يرد الفعل مؤكداً، وكأنّ القسم محتاج إلى هذا الضرب من فنون القول كقوله تعالى:

تاللهِ لَأكيدَنَّ أصنامكم (٥٧ سورة الأنبياء).
فوربِّك لَنحْشرَنَّهُمْ والشياطين (٦٨ سورة مريم).
تاللهِ لتُسألُنَّ عما كنتم تفترون (٥٦ سورة النحل).

وقد بينا ان التوكيد يكون بعد فعل القسم وما في معناه كالحلف، وكأن القسم يقتضي التوكيد بصور التوكيد جميعها كما بينا.

وقد حملوا الجمل المؤكدة التي لم يظهر فيها ألفاظ القسم على أنها جمل في القسم، ومن ذلك جملة الآيات التي بُدئت بـ «لئن» كقوله تعالى:

لئن شكرتُم لأزيدنكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد (٧ سورة ابراهيم).

وقد يكون لهم ذلك لان الفاظ القسم قد تأتي وفي حشو الآية كلمة «لئن» كقوله تعالى:

وأقسموا بالله جهدَ أيمانهم لئن جاءتهم آية ليُؤمِنُنَّ بها (١٠٩ سورة الأنعام).

أقول: وكأن مجيء التوكيد بعد القسم لمايكون من أن القسم يقتضي الارادة والعزم أو مايدعى بـ «التصميم»، ومن هنا نفهم مجيء التوكيد في قوله تعالى:

وتمَّت كلمة ربك لأملأنَّ جهنمّ من الجِنّة والناس أجمعين (١١٩ سورة هود).

وكقوله تعالى:

وَعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيَسْتخلِفَنَّهُمْ في الأرض (٥٥ سورة النور).

وكأن في قوله تعالى «وتمت كلمة ربك» وقوله تعالى «وعد الله الذين آمنوا منكم...» ارادة وعزماً وتصميماً، وفي هذا من القوة مافي القسم الصريح.

وقد نحمل على هذا المعنى من ارادة التوكيد من غير أن يكون في السياق مايفيد القسم ماجاء في قوله تعالى في الآيات الآتية:

وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنَّه عذاباً شديداً (٢١ سورة النحل).

أفرأيتَ الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا (٧٧ سورة مريم).

قال الذين غَلَبوا على أمرهم لنتَّخذِنَّ عليهم مسجداً (٢١ سورة الكهف).

أقول: ولم يُشر النحاة الأقدمون إلى أسلوب التوكيد في لغة التنزيل مما هو خارج عما يعرض في أسلوب القسم الذي مثلنا له وما يكون في أسلوب الطلب كقوله تعالى:

فاستقيما ولا تتبعانِّ سبيل الذين لايعلمون (٨٩ سورة يونس).

ولا تحسَبَنَّ الذين قُتِلوا في سبيل الله أمواتاً... (١٦٩ سورة آل عمران).

أقول: لم يشر النحاة إلى ماخلا هذا الذي ذكرته من أسلوب التوكيد مما

سجلته لغة التنزيل كقوله تعالى:

لَتُبْلَوُنَّ في أموالكم وأنفسكم ولتسمَعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم.... (١٨٦ سورة آل عمران).

وليس من وجه أن نذهب إلى تقدير قسم ليكون الاسلوب جارياً على ماأثبت النحاة من قاعدة. ومثل هذا قوله تعالى أيضاً:

ياأيها الذين آمنوا لَيَبلوَنَّكم الله بشيء من الصيد (٩٤ سورة المائدة).

وقوله تعالى:

وَلَيُبَيِنَنَّ لكم يوم القيامة ماكنتم فيه تختلفون (٩٢ سورة النحل).

وقوله تعالى:

والذين آمنوا وعملوا الصالحات لَنُكَفِّرَنَّ عنهم سيّئاتهم ولنَجزينَّهم أحسَنَ الذي كانوا يعملون (٧ سورة العنكبوت).

ومثل هذا كثير من الآيات التي حفلت بأسلوب التوكيد مما لم يُشر إليه النحاة ولم يدخل في حدودهم.

وبحسب ما استقريت من الآي الكريم اتضح لي أن إرادة التوكيد يقتضيها إرادة المتكلم في إثبات أمر من الأمور على نحو يبتعد عن مقام الشك والضعف. ومن أجل ذلك لم يكن مايوجب التوكيد بالنون إن كان المقام نفياً كقوله تعالى:

فلا وربِّك لايُؤمنون حتى يحكِّموك فيما شَجَرَ بينهم (٦٥ سورة النساء).

فللنفي المذكور لم يؤكد الفعل مع مجيئه جواب قسم دالاً على الاستقبال. ولا بد من وقفة خاصة عند قوله تعالى:

قال تاللهِ إنْ كدتَ لَتُردينِ (٥٦ سورة الصافات).

أقول: لم نجد الفعل مؤكداً في هذه الآية، وأسلوب التوكيد مستحق فيها، فهي شيء مثل ماكان في الآيات الأخرى، فهي في أسلوب القسم،

والفعل جواب له وهو مستقبل متصل باللام القسمية للتوكيد. فلِمَ لم يكن الفعل مؤكدا؟.

والجواب عن هذا أن الحق سبحانه وتعالى أحكم بناء لغته العلية فاتخذ لها مقاييس ترمي إلى أن تكون هذه اللغة في حدود آياتها وفواصلها متسقة متساوقة تقوم على شيء كبير من إحكام في السياق الموزون.

ان النظر في الآيات التي سبقت هذه الآية والتي وليتها استوفت نمطاً من المماثلة في الطول والوزن ولننظر إلى هذا السياق المحكم:

.... قال هل أنتم مطّلعون ● فاطَّلَعَ فرآه في سواء الجحيم ● قال تاللهِ إنْ كدتَ لتُردين ● ولولا نعمة ربي لكنتُ من المحضرين (الآيات ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧ من سورة الصافات).

ألا ترى ان قوله تعالى «لَتُر دينِ» فرضه مجيء الآيات السابقة واللاحقة منتهية بالنون أو الميم، وفي هذين الصوتين يتم ضرب من المماثلة ولا أقول السجع، ثم إن أبنية الكلمات التي تنتهي بها الفواصل قد جاءت متماثلة متساوقة.

ان هذه المشابهة اقتضت المراعاة التي درجت عليها لغة التنزيل، وإن خالفت شيئاً من نحو العربية وصرفها وأبنيتها. وهذا ما يمكن أن نسميه بالتناسب، ولا أريد أن أفصل فيه فقد كان هذا من جملة مواد عرضت لها في كتاب لي أسميته «فوائد من لغة التنزيل» ولكني أذكِّر الدارس بقول الرسول الكريم: ارجعنَ مأجورات غير مأزورات.

وقد عرض لهذا الموضوع أهل البلاغة والدارسون لكلام الله -جل وعلا-.

ولعل شيئاً من ذلك ان تكون لغة التنزيل قد عدلت عن النون الثقيلة المؤكدة إلى الخفيفة التي تحولت من أجل التخفيف أيضاً إلى ألف كما في قوله تعالى:

ولئن لم يفعلْ ماآمُرُه ليُسجَنَنَّ وليكونا من الصاغرين (٣٢ سورة يوسف).

ألا ترى أن الصنعة العلية عدلت عن النون الخفيفة إلى الألف في قوله « وليكونا » طلباً لضرب من المشاكلة والمساوقة الفنية التي تقوم على الخلاف.

وبعد فهذا فصل في « التوكيد » من أساليب القرآن قصرته على ماجاء من الكلم المؤكد بالنون، وأضيف أن زيادة النون طريقة من طرائق التوكيد في العربية فقد يكون في طوقنا أن نذكر شيئاً آخر في هذا الباب، فإذا قرأنا قوله تعالى:

لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد (٧ سورة إبراهيم).

أدركنا ان التوكيد للفعل بالنون يقابله توكيد باستعمال « إنّ » في الجملة الاسمية.

هذه فوائد وجدت أن أفرد فيها القول بعد الكلام على أسلوب القسم في الشعر القديم وكلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

أسلوب التعجب
في
لغة التنزيل

لقد عرف الدارسون في علوم العربية «باب التعجب» على أنه مادة نحوية تتأتى بصيغتين هما: ما أفعَلَه وأفعِلْ به نحو قولهم: ماأحسن زيداً، وأحسِنْ بزيد. ثم أدركوا في هذا الباب كيف يصاغ فعل التعجب وما شروطه، وليس من وكدي ان أعرض لهذه المواد التي يعرفها الشداة من الدارسين.

غير أني أقول أن الاقتصار على ماقاله النحاة في هذا الباب يبعدنا عن فهم هذه المادة التي هي من فنون القول الخاص. ان قولنا: «ما أحسَنَ السماءَ» تعجب من حُسن السماء وإعراب عن هذا الحسن بأسلوب لايدخل في حقيقة الجملة الخبرية المشتملة على المسند والمسند إليه، فليس هو نظير قولنا: زيد حاضر.

لقد خفي هذا الأمر على النحاة القدماء فأرادوا أن يسلكوا جملة مسائل في نظام الجملة الخبرية وهي بعيدة عنها. وقد يتساءل الدارسون لِمَ ذهب النحاة هذا المذهب؟ والجواب عن هذا أن النحاة شغلوا أنفسهم بالإعراب، ولأجل هذا ذهبوا إلى أن «ما» مبتدأ، ثم قالوا إنها «تعجبية»، وكأنهم شعروا ان القول مفتقر إلى شيء من قوة، وانه غير سديد فقالوا: انها بمعنى «شيء» وهي «نكرة» «تامة».

وقد تعجب من قولهم هذا وأنت تجمع شتاته فهي «شيء» وهي «نكرة» ثم قالوا «تامة» ليتأتى لهم أن الابتداء بها جائز ووارد لأنها نكرة مفيدة «لتمامها». ولكنك تعجب كذلك حين تريد أن تعرف معنى «التمام»، ثم كيف تكون بمعنى «شيء»؟ كل ذلك ليقولوا: إنها في هذا المعنى تجعل الجملة بمعنى: «شيءٌ حسَّنَ أو أحسَنَ السماء».

وهذا عجب من العجب!! إذ كيف يمكن أن يكون هذا «التعجب» جملة تعني إخباراً ليس غير؟ وما أظنك تنكر أشد الانكار هذه المقولة؛ ذلك أنك حين تنطلق متعجباً من «حسن السماء» فتقول: «ما أحسن السماءَ» لا تريد أن تقول «إن السماء حسنة».

قد تقول: ألم يفطن النحاة إلى هذا؟ وأقول: ربما فطنوا إلى هذا ولكنهم درجوا على تصنيف طرائق القول فضموا بعضها إلى بعض للتشابه الحاصل بينها، فإن لم يكن هذا التشابه صاروا إليه بشيء من الرفق بضرب من التفسير والتعليل. على أن في هذا المنهج شيئاً من وجاهة علمية هدتهم في التأليف والتصنيف، غير أن من العلم ألا يغلو الدارس في التعليل والتفسير فينتهي إلى التفريط.

إن قولنا ان الجملة الخبرية تشتمل على مسند ومسند إليه، والعلاقة بينهما هو طبيعة الاسناد، ألا ترى أنك تسند «القيام» إلى «زيد» فتقول: قام زيد فتكون جملة فعلية، وقد تقول: زيد قائم فتكون جملة إسمية.

إذا كان هذا جارياً في نظام الجملة العربية، فهل يكون في طوقنا أن ندرك «طبيعة الإسناد» في قولنا: ماأحسَنَ زيداً، وهلا كنا نقصد من هذه العبارة: «شيء حَسَّنَ زيداً» على نحو ما قال النحاة الأقدمون؟

وإذا جاز لنا أن نفسر ونؤول على هذا النحو فلم لايجوز لنا أن نؤول قول القائل:

أتشاركني في طعامي؟

فنقول: معناه: أريد أن تشاركني في طعامي، وعلى هذا التفسير تصبح جملة الاستفهام جملة خبرية.

ليس لنا أن نذهب هذا المذهب مع علمنا أن «جملة الاستفهام» هذه يراد بها «العَرض»، ومن المعلوم ان أهل المعاني من البلاغيين قد ذهبوا في تعليل الاستفهام مذاهب جميلة في خروج الاستفهام من الاستفهام الحقيقي إلى معان

أخرى هي الالتماس والرجاء والعرض والتحضيض والاستعطاف وغيرها. ولكن مع هذه الوجوه المقصودة من الاستفهام يبقى الكلام استفهاماً وليس «خبراً» على نحو مايذهب البلاغيون من إفادته الصدق والكذب وإن الجواب عنه بـ «نعم» أو «لا».

وإذا جاز لهم أن يقولوا ان «ما» التعجبية هذه هي بمعنى «شيء»، فلِمَ لم يقولوا شيئاً من نحو هذا في «يا» التي لايراد بها النداء في قولهم «ياعجبي» و «ياعجبا» و «ياحسرتي» و «ياحسرتا» و «ياأسفي» و «ياأسفا».

وليس من شك ان الإعراب عن هذه «العواطف» هو الغرض من هذا الأسلوب. ولم يكن ادراجها في باب «النداء» إلا بسبب الشكل من وجود «يا» التي تستعمل كثيراً في النداء، ثم ان مابعدها يعامل في حركاته الإعرابية معاملة المنادى.

ومثل هذا يقال في «واعجبي» و «واأسفي» ونحو ذلك.

ثم إننا إذا قلنا: «ماأحسَنَ زيداً» وادعينا أن المعنى: شيء حسَّن زيداً، فهل نفهم من هذا التفسير معنى التعجب المراد؟.

أقول: هذا شيء من تأويل النحاة الذي يفتقر كل الافتقار إلى العلم.

ثم ماذا؟

قالوا في «أحسن» أنها فعل ماضٍ مبني على الفتح يفيد التعجب، فاعله ضمير مستتر «وجوباً» يعود على «ما» و «زيد» مفعول به.

وهذه جملة مسائل متهافتة ليس من سبيل إلى قبولها وتوطين النفس على الأخذ بها.

أقول:

كيف يتأتى لي أن أجريَ فعل «الحسن» وهو قاصر لازم مجرى الفعل المتعدي المجاوز؟ فإذا كان القائل متعجباً من «حسن» زيد، فكيف نفهم أنه أراد أن «شيئاً» حسَّنه!! وقد يقال: ألم يفطنوا إلى هذا؟

والجواب: أكبر الظن أنهم عرفوا هذا، ولكنهم أغفلوا النظر فيه

والوقوف عليه وذلك بسبب أنهم أحرجوا بمجيء « زيد » منصوبة، ولم يكن لهم إلا أن يقولوا: إنها مفعول به.

وأقول: وليس لي أن أدرك حقيقة كون « زيد » مفعولاً به، وذلك لأن فعل « الحسن » قاصر، ولكنهم جعلوه في تفسيرهم متعدياً فكان لهم ذلك، ثم تصوروا الفاعل وحكموا بوجوب استتاره.

أقول: ان جميع هذا قد تأتى من أنهم لم يحسنوا النظر في جملة التعجب، ولو أنهم نظروا إليها بعيداً عن « النحو » وقيد « الإعراب » ورأوا فيها طريقة في القول أو أسلوباً من أساليب العربية التي تبتعد عن غيرها من وجوه الكلام، لكانوا أصابوا خيراً. إننا نلغي الغرض من هذه الفنون إن قيدناها بالمصطلح النحوي ومايفرضه من مسائل وحدود وشروط.

ومن الخير أن نحمل باب التعجب على أنه اسلوب في العربية يؤدي معنى التعجب. وقد يقال فكيف تقول في افراد هذا الأسلوب؟

والجواب عن هذا:

ان « ما » أداة في أسلوب التعجب، وان « أحسن » فعل للتعجب، و « زيد » متعجب من « حسنه ». ولا أقول: ان « أحسن » فعل ماض، ذلك أن تقييد هذا الفعل بحدود الزمن باطل وعبث، فليس الزمن مقصوداً ولا مكان له في هذه الجملة الخاصة. ولا أدري كيف أدركوا « المضيّ » في « أحسن »؟

وليس لي أن أقول إلا إنهم قالوا بأنه فعل ماض حملاً على الصيغة أو ماندعوه في عصرنا بـ « الشكل » فكأن « أَحْسَنَ » مثل « أَعْلَمَ » ونحوها، وعلى هذا ينتفي تقدير « الفاعل »، وينتفي كون المنصوب المتعجب من « حسنه » مفعولاً به.

إن الذي ورد من أسلوب التعجب هذا في لغة التنزيل قوله تعالى:

فما أصبَرَهم على النار (١٧٥ سورة البقرة).

ولم يقف النحويون الأقدمون عند صيغة « ما أفعله » بل أضافوا إليها

صيغة « أفعِلْ به » فقالوا « أحسِنْ بزيد » . وكان لهم في هذه الجملة كلام آخر.

قلت: لقد درج النحاة الأقدمون على التقريب بين الصيغ وأن هذه الصيغة في بنائها نظير تلك الصيغة فكانت « أحسَنَ » في أسلوب التعجب نظير « أعلَم » فقالوا إنها فعل ماض، وليس فيها شيء من المضي. وقلت إنهم قالوا ذلك ليصيروا إلى أن « السماءَ » مفعول به. ثم ناقضوا أنفسهم وخذلوا شروطهم في وجوب صوغ « أفعل » بالتعجب من الفعل اللازم وليس المتعدي. ثم ماذا في الصيغة الثانية « أفعِلْ به »؟.

قالوا: إن « أفعِلْ » فعل ماض جاء على صيغة الأمر[1].

أقول: لانعرف فعلاً ماضياً جاء على صيغة الأمر غير هذا. وما كان لهم أن يقولوا هذا إلا لأنهم حرصوا على مراعاة الشكل في الظاهر وان « أفعِلْ » هذه بسكونِ الآخر تُشبه « أعلِمْ » الأمر من « أعلَمَ ».

لقد أجرى النحاة قوله تعالى:

أَبصِرْ به وأَسمِعْ مالهم من دونه من وليّ (٢٦ سورة الكهف).

وقوله تعالى:

أَسْمِعْ بهم وأَبصِرْ يومَ يأتوننا (٣٨ سورة مريم).

على التعجب، وأن قوله تعالى « أسمِعْ وأبصِرْ » نظير قولنا: ماأحسَنَ زيداً. والذي أراه أن ليس هذا من ذاك وليس بينهما من صلة مشابهة أو قرابة دلالية، أو انهما كلاهما يؤديان فائدة واحدة هي التعجب.

ولا أرى أن في قوله تعالى: « أبصِرْ به وأسمِعْ » ارادة تعجب ذلك أن تمام الآية هو:

---

(١) أقول: ليس في « صيغة » الأمر كما في « الكتُب » دلالة على الزمن حاضراً أو مستقبلاً وذلك لأنه طلب لم يقع فكيف يقترن بزمان! هذا من غرائبهم، والماضي والحال والاستقبال مقيد بـ « فعل » و « يفعل » وليس « الأمر » قسماً ثالثاً في الأفعال العربية، وإنما هو طريقة في الطلب تتبع في بنائها وحركاتها بناء « يفعُل » فالعين في الأمر كالعين في « المضارع » من حيث الحركات.

« قل اللهُ أعلمُ بما لبثوا له غَيب السموات والأرض أبصِرْ به وأسمِعْ مالهم من دونه من وليٍّ ولا يشرك في حكمه أحداً » . وفي هذه الآية ذكر لأهل الكهف ومدة لبثهم فيه .

وقد نستفيد من الآية أنها تشتمل على تعظيم الله وتمجيده ففي قوله تعالى « أبصِرْ به وأسمِعْ » ضمير يعود عليه ـ سبحانه ـ ، وهو في هذا ألصق بأسلوب المدح منه بالتعجب .

وأما قوله تعالى في سورة مريم فلنا أن نذكر منها الآية السابقة وهي :

« فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهدِ يومٍ عظيم أسمِعْ بهم وأبصِرْ يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلالٍ مبين » .

وليس من إرادة للتعجب بل المراد بيان عظم المشهد في ذلك اليوم الذي عبر عنه بـ « أسمِعْ بهم وأبصِرْ » ولعل هذا الأسلوب يؤدي مانؤديه في قولنا « إنه ملء السمع وملء البصر » ، وليس من شك أن في هذه الجملة الخبرية شيئاً من المدح .

ولنأت ثانية إلى النحاة فنجدهم قد حملوا هاتين الآيتين على « التعجب » وكأنهما نظير قولهم : ماأحسَنَ زيداً . ولما استقروا على القول بالتعجب فصلوا في قولهم فكان :

أسمِعْ فعل تعجب ماض جاء على صيغة أمر . وهذا من الغرائب فأين المضي ، وأين الأمر؟ إننا لاندرك شيئاً من الدلالة الزمنية كما لاندرك أسلوب الأمر وعلى ذلك فهو بناء فعليّ قديم ورثته العربية على هذه الهيئة التي لاتتغير فليس لنا أن نقول : « أبصِرْ وأبصِرا وأبصِروا » مثلاً .

وفي العربية أبنية تشبه الفعل في صيغها واستعمالها ولكنها ليست كالفعل دلالة على الحدث والزمن . وليس التعجب والمدح والذم إلا من هذه الأساليب القديمة التي استبقتها لغة التنزيل العزيز .

قال النحاة أيضاً : « أبصر » فعل ماضٍ أتى على صيغة الأمر للتعجب .

ثم ماذا ؟

لابد أن يكون «فاعل» وإذا كانوا قد قدروا الفاعل ضميراً مستتراً «وجوباً» في قولهم: «ما أحسن زيداً» فقد أظهروه في هذه الجملة الثانية فقالوا في «بهم» من قوله تعالى: «أسمِعْ بهم وأبصِرْ»: إن الباء حرف جر زائد والضمير في محل جرٍ حقه الرفع لأنه فاعل. وإذا كان «حسن زيد» هو المتعجب منه فكيف يكون «زيد» مرةً مفعولاً به وأخرى فاعلاً؟ وليس لنا من وجه ان نطمئن إلى هذا فنأخذ به لما يعرض له من التكلف والافتعال.

ولم يجد النحاة الأقدمون غير الآيتين هاتين شاهداً في هذا الباب، وغير قول أوس بن حجر:

أقيم بدار الحزمِ مادام حزمها وأحْرِ اذا حالَتْ بأن أتحوَّلا

وكيف لنا أن ندرك أن في قول الشاعر: «وأحر.....» معنى التعجب؟ ألا ترى أن الشاعر لوقال: «وحريّ بي أو من الحَرَى أن اتحوّل إذا حالت» لأدّى المراد الذي أدّاه بعجز البيت، فأين التعجب!!

وإذا كان النظر إلى «التعجب» شيئاً يختلف عمّا درج عليه النحاة فمن الحَسَن أن يدرج في هذا الباب ماجاء من أسلوب الاستفهام مما خرج إلى التعجب كقوله تعالى:

كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم (٢٨ البقرة).

وغير هذا مما حفل به كتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ومن التعجب قول النحويين في باب «التمييز»: لله درُّه فارساً.

وقولهم في استعمال «سبحان» المفيدة للدعاء: سبحان الله إن المؤمن لاينجس.

ويحسن بي أن أختم هذا الموجز بقول أحمد شوقي في مطلع إحدى قصائده:

ألا حبـــذا صُحْبَــةُ المكتـــبِ   وأحبِـــبْ بــأيــامهــا أحبِـــبِ

لقد بدأ شوقي بفعل المدح « حبذا » في صدر مطلعه وجاء بالعجز بقوله « أحبب » . وليس من شك أن الشاعر أراد بالعجز شيئاً يقوي فكرة المدح والاستحسان التي جاءت في الصدر، وليس في هذا العجز شيء من التعجب، فكأنه أراد أن يقول: أن تلك الايام حبيبة إليّ، وعلى هذا فتأويل قوله: « وأحبِبْ بأيامها أحببِ» أنه أراد الجملة الخبرية على ماأشرنا إليه .

والذي يؤيد هذا أن شيئاً من هذا بقي في العربية المعاصرة، فأنت تجد في حديث الناس ونثرهم أنهم يرددون قولهم: « أكرِمْ وأنعِمْ » في مقام الاستحسان والمدح لا التعجب في الكلام على رجل عرف بالمحامد . وقد يقولون هذا في مقام القدح والذم على سبيل التهكم .

أسلوب التفضيل
في
لغة التنزيل

لقد أشار النحاة الأقدمون إلى مايصاغ منه « أفعَلَ » التعجب فقالوا يُصاغ مما يصاغ من أفعل التفضيل وذلك من حيث انهما يشتقان من الفعل الثلاثي المتصرف التام الذي لا يأتي منه الوصف على « أفعل ـ فعلاء » ولا « فعلان ـ فعلىَ » قابلاً للتفاوت مبنياً للمعلوم.....

وعلى هذا فلايتعجب أو لايشتق التفضيل من الرباعي إلا بـ « أشدّ » ونحوها متلواً بمصدر الفعل منصوباً ولا يشتق من غير المتصرف نحو « عسى » وغيره، ولا يشتق من الأفعال الناقصة إلا بـ « أشد » ونحوها....

وهذا يعني أن النحاة لحوا أن في إنشاء هذين الأسلوبين مشابهة. ولما كان « التفضيل » لم يُستوفَ لدى النحاة على النحو الذي يتأتى منه رأيت أن انظر فيه في ضوء ماجاء منه في كتاب الله ـ سبحانه ـ. ولنبدأ بما كان لنا من هذا الباب مما ورد في كتب النحو القديم.

ومن ذلك أن « أفعل » التفضيل يأتي متلواً بالمفضَّل عليه مجروراً بـ « من » وفي هذه الحالة يلزم حالتي الإفراد والتذكير كقوله تعالى:

أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا (١٠ سورة الحديد).

ويأتي « أفعَل » التفضيل محلىً بالألف واللام، وفي هذه الحالة يكتفى به فلا يذكر المفضل عليه ثم إنه بطابق المفُضَّل إفراداً وتثنية وجمعاً وتذكيراً

وتأنيثاً[١] نحو قوله تعالى:

ويتجنّبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى (١١ سورة الأعلى).

وقوله ـ سبحانه ـ :

ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلَون (١٣٩ سورة آل عمران).

إلا مَنْ تولىّ وكفر فيعذّبه الله العذاب الأكبر (٢٤ سورة الغاشية).

لنريَك من آياتنا الكبرى (٢٣ سورة طه).

ويذهبا بطريقتكم المثلى (٦٣ سورة طه).

تنزيلاً ممن خَلَقَ الأرض والسموات العُلى (٤ سورة طه).

اقرأ وربّك الأكرم (٣ سورة العلق).

وقد يأتي اسم التفضيل مضافاً إلى نكرة فيلزم حالة الافراد والتذكير نحو: زيد أفضل رجل، وهند أفضل امرأة، وقوله تعالى:

ولا تكونوا أول كافرٍ به (٤١ سورة البقرة).

والتأويل: أول فريق كافر.

كما يأتي مضافاً إلى معرفة والمطابقة في هذه الحالة حاصلة، كقوله تعالى:

وما نراكَ اتّبعك إلّا الذين هم أراذلنا (٢٧ سورة هود).

وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها (١٢٣ سورة الأنعام).

واستشهد النحويون أيضاً بقولهم: الناقص والأشج أعدلا بني مروان.

أقول: كأن النحويين لم ينظروا إلى قوله تعالى:

ولكن أكثر الناس لايشكرون (٢٤٣ سورة البقرة).

ولكن أكثر الناس لايؤمنون (١٧ سورة هود).

---

(١) مثل النحاة لهذه الحالة بـ «الأفضل» والفُضلى والأفضلان والأفضلون والفضليات والفُضَّل» وهذه الأخيرة «الفُضَّل» مثل «السجَّد» ولاتعرف هذا البناء إلا فيما كان مفرده فاعل جميع الآخر نحو ساجد وراكع.

ومثل هاتين الآيتين آيات أخرى.

قلت: كأنهم لم ينظروا في هذه الآيات ليقولوا فيها إن «أكثر» وإن أضيفت إلى المعرفة لزمت حالتي الإفراد والتذكير وذلك لأنها جردت من معنى التفضيل فهي تعني: أن الكثير من الناس لا يشكرون........

أقول: كان عليهم أن يشيروا إلى ذلك حفاظاً على القاعدة التي أثبتوها وهي سليمة. ولقد شغل النحويون أنفسهم بما ورد من شواهد تنال من القواعد التي أيدّها استقراؤهم، وجاء من ذلك قول الأعشى:

ولستَ بالأكثر منهم حصىً ... وإنّما العزّة للكاثر

وقد ذهبوا في هذا مذهبين أولها حمل البيت على الشذوذ وذلك لمجيء المفضل عليه مجروراً بـ «من» مع أن اسم التفضل محلىًّ بالألف واللام، والثاني قولهم أن «منهم» متعلق بـ «أكثر» محذوفاً، والتقدير: «ولست بالأكثر أكثر منهم حصىً».

أقول: وتأويلهم هذا فيه من التكلف قدر كبير، إذ كيف يتصور ان الشاعر الجاهلي حين قال البيت قد أنشأ في ذهنه شيئاً من هذه الأفاعيل!!

ومثل هذا قولهم في بيت ابن هاني المشهور:

كأن صُغرى وكبرى من فقاقعها ... حَصْباءُ درٍّ على أرضٍ من الذهبَ

والشاهد فيه مجيء اسمي التفضيل المؤنث «صغرى وكبرى» متبوعين بالمفضل عليه مجروراً بـ «من» ومن المعلوم أن المفضل عليه الذي يجر بـ «من» يتبع «أفعل» التفضيل الذي يلزم حالة الإفراد والتذكير نحو: هو أفضل من أخيه، وهي أفضل من أختها... وحملوا هذا إما على الخطأ وإما أنهم التمسوا له وجهاً من التأويل، شأنهم في ذلك شأنهم في كثير من وجوه الخطأ والبعد عن الصواب المألوف.

ولو أنهم قالوا ان الشاعر قد يمتحن في النظم فيضطر إلى أن ينهج غير الصواب المشهور لكان أحسن.

وقالوا: إن إسم التفضيل يرفع الضمير المستتر في قولهم «زيد أفضل»، والضمير المنفصل والإسم الظاهر كقولهم: مررت برجل أفضل منه أبوه أو أنت.

ثم ذهبوا في مسألة عمل اسم التفضيل ورفعه الفاعل إلى شيء آخر لايخلو من حذلقة وافتعال وهو قولهم:

ويطرد رفع «أفعل» للفاعل إذا حلّ محل الفعل وذلك إذا سبقه نفي وكان مرفوعه أجنبياً مفضلاً على نفسه باعتبارين.

ويستشهدون على ذلك بمسألة «الكحل» التي عرفناها في هذا الباب النحوي وقلما نراها في أساليب الكتاب أو نظم الشعراء وهي قولهم: مارأيت رجلاً أحسنَ في عينه الكحل منه في عين زيد.

والمعنى: مارأيت رجلاً يحسن في عينه الكحل كحسنه في عين زيد.

والكحل «أجنبي» في هذا التركيب المحكم أي أنه ليس طرفاً في التفضيل بل هو شيء من لوازم هذا البناء الذي بولغ في افتعاله.

وقولهم: «مفضلا على نفسه باعتبارين» يعني أن الكحل في عين زيد أحسن من الكحل نفسه في عين رجل آخر. وما أرى هذا سائراً في كلام المترسلين، ولو كان شيء منه لصاروا إليه بتعبير أخف وأقل مؤونة.

وقالوا: والأصل أن يقع هذا الاسم الظاهر بين ضميرين أولهما للموصوف وثانيهما للظاهر كما مُثِّل، وقد يحذف الضمير الثاني، وتدخل «من» إمّا على الاسم الظاهر أو على محله، أو على ذي المحل فتقول: «من كحل عين زيد» أو «من عين زيد» أو «من زيد» فتحذف مضافاً أو مضافين. وقد لا يؤتى بعد المرفوع بشيء فتقول:

مارأيت كعين زيد أحسن فيها الكحل.

وقالوا: ماأحد أحسن به الجميل من زيد، والأصل: ما أحد أحسن به الجميل من حسن الجميل بزيد، ثم إنهم أضافوا الجميل إلى زيد لملابسته إياه

ثم حذفوا المضاف وعلى هذا جاء في أرجوزة ابن مالك:

لـن تـرى في النـاس مـن رفيـقِ　　أولى بـه الفضـل مـن الصِّـدِّيـقِ

والأصل: من ولاية الفضل بالصِّدِّيق، ثم «من فضل الصِّديق» ثم «من الصِّديق». أقول: ولو استقريت مايشبه هذا القول في كلام أهل اللسن والفصاحة لوجدتهم ينطلقون في القول البيِّن الواضح السليم الذي لايصرف ذهن السامع إلى ضروب من التقدير والتأويل، ولكن النحاة ذهبوا إلى أن شيئاً من هذه الأساليب قد تحدث، فإن كان ذاك فلا بد أن يصار إلى هذا التأويل.

ولندع هذا الضرب من الشغل النحوي وننظر في كتاب الله لنتبين فيه الفوائد السنية التي وردت في أسلوب التفضيل فنقول:

«أفعل» التفضيل ضرب من الصفة وهو صفة في اعرابها في كثير من وجوه القول كما يكون شيئاً آخر نظير الصفة سواء بسواء فإذا قلنا: «هو أكرم من أخيه» و «أكرم» هنا خبر المبتدأ كما نقول: «هو كريم» و «كريم» خبر أيضاً. ونقول «ما رأيت رجلاً أحسنَ خلقاً من زيد» كما نقول: «ما رأيت رجلاً حسناً خلقاً كزيد».

وعلى هذا: ألم يكن من الخير والمفيد أن يكون «أفعل» التفضيل مع الصفة فهو الصفة التي تؤدي معنى التفضيل.

قد يتساءل الدارس: لِمَ لم يذهب النحويون هذا المذهب؟ والجواب عن ذلك: ان للنحويين مذهباً في إعراب مايتبع الصفة ولم يتيسر وجوده كما يرون في «أفعل» التفضيل كقولهم: جاء رجل حَسَنٌ أبوه، أو حَسَنُ الأب، أو حَسَنٌ أباً.

وهذا الوجه الأخير ابتدعوا له مصطلحاً متهافتاً لانحسّ بمصداقيته وهو أن «أباً» منصوب على شبه المفعولية، ولا أدري ماوجه الشبه!!

ولنعرض لما ورد على «أفعَل» في لغة التنزيل فنقول:

وردت « أفعل » التي تفيد التفضيل كثيراً في الآيات الكريمة كما استشهدنا بذلك مصدِّقة ماذهب إليه النحاة من أحوال مجيء هذه الصيغة من حيث مطابقتها وعدم المطابقة وماتقتضيه المطابقة من صيغة الكلمة، وما يقتضيه عدم المطابقة من ذلك إفراداً وتثنية وجمعاً وتأنيثاً وتذكيراً، وقد مر جميع ذلك.

غير أننا نجد في آيات أخرى شيئاً آخر وهو مجيء كلمة « أفعل » مفردة مذكرة وليس متلوةً بالمفضّل عليه مجروراً بـ « من ».

وقد نجد إلى ذلك سبيلاً من التقدير كقوله تعالى:

قد بدت البغضاء من أفواهِهم وما تُخفي صدورُهم أكبرُ (١١٨ سورة آل عمران). فمن غير شك أن التقدير: ..... وما تخفي صدرورُهم أكبر « من ذلك ».

وكقوله تعالى أيضاً:

وان تجهرْ بالقول فإنه يعلم السِّرَّ وأخفَى (٧ سورة طه). والتقدير: ...... وأخفى « من السر ».

ومن المسلم به ان لغة القرآن العزيز طوت المفضل عليه المجرور بـ « من » لحاجة هي الحفاظ على البديع من نظم القرآن كما في الآية الثانية، وإن هذا المفضل عليه قد طوي في الآية ايجازاً للعلم به وذاك مطلب من مطالب البلاغة العربية القرآنية، وفيه نظائر كثيرة وقد يطوى ذكر المفضل عليه لما يكون في الآية الكريمة مما يدل عليه كقوله تعالى:

والذين آمنوا أشد حبّاً لله (١٦٥ سورة البقرة).

والمفضل عليه الذي لم يذكر صراحة في الآية واضح في أول هذه الآية وهو قوله تعالى: « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبّونهم كحُبّ الله، والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله ». وعلى هذا يكون التقدير:

والذين آمنوا أشد حبّاً لله من حبّ أولئك الذين اتخذوا من دون الله أنداداً ..... وأنت تستطيع أن تدرك هذا الذي طوي ذكره من هذا الأمر

في الآيات الكريمة بشيء من لطف النظر في أفانين هذا الكلم الجليل، ومن ذلك مثلاً قوله ـ عز من قائل ـ :

« وكذلك نجزي من أسرَفَ ولم يؤمن بآيات ربّه، ولعذاب الآخرة أشدُّ وأبقىّ » (١٢٧ سورة طه).

ألا ترى أن الله ـ سبحانه ـ حين طوى ذكر المفضل عليه ايجازاً يرمي إلى كمال البلاغة بعد قوله « أبقى » كان من السديد ومن الفصيح المليح أن يطويه بعد « أشدّ » السابقة اهتداءً لما يتطلبه التناسب في هذا الأسلوب البليغ. وعلى هذا ندرك بيسر كيف كان قوله:

« أأنتم أعلم أم الله » (١٤٠ سورة البقرة). وتقدير هذا: أأنتم أعلم من الله أم الله أعلم منكم.

وإذا قرأت الآية وأدركت تأويلها علمت أن الأوائل أصابوا الحق حين ذهبوا إلى أن « البلاغة الايجاز »، وأنها حاصلة في قوله تعالى: « ذلك أزكى لكم وأطهر »، (٢٣ سورة البقرة). ولكننا ندرك من استعمال « أفعل » أفانين حفلت بها لغة التنزيل العالية ولنقل قوله ـ عز شأنه ـ : « ويتجنَّبُها الأشقَى الذي يصلَى النارَ الكبُرى » (١١، ١٢ سورة الأعلى).

إن « الأشقى » في الآية من غير شك من هو أشقى من غيره، ولا أريد أن أقول: أن المفضل عليه قد استغني عنه لمجيء « أفعل » محلًّى بالأداة، ولكني أذهب إلى شيء آخر أغنى من دلالة التفضيل وأقول: إن « الأشقى » وان احتفظت بفائدة التفضيل فالحق ـ سبحانه ـ أراد تأكيد الوصف بـ « الشقاء » الأبدي بدلالة ماورد من وصف هذا « الأشقى » في الآية التالية فقال ـ عز من قائل ـ « الذي يصلى النار الكبرى »، ففي وصفه بأنه « صالٍ » لهذه « النار الكبرى » إرادة في بيان عظم « الشقاء » لهذا « الشقي »، وليس شيئاً يراد به التفضيل. وفي هذه اللغة العلية أفانين كثيرة اجتزأنا منها باليسير.

ومثل « الأشقى » في الآية هذه قوله تعالى:

« وسَيُجَنَّبُها الأتقىَ الذي يؤتي ماله يَتَزَكّى » (١٧ سورة الليل).

و « الأتقى » هنا على « أفعل » وليس في شيء من التفضيل بقدر ما هو شيء من ارادة تقرير الوصف بالتقوى بدلالة الوصف الذي جاء بعده مبدوءاً باسم الموصول « الذي ».

وعلى هذا كانت صفاته ـ سبحانه ـ صفات خاصة لايشركه في جوهرها وقدرها وجلالها صفات المخلوقين، فما جاء من ذلك على « أفعل » لايمكن أن يفيد التفضيل، بل ينصرف إلى الكمال المطلق في مفهوم أيٍّ من تلك الصفات، ألا ترى أن قول المؤذّن: « الله أكبر » من هذا الكمال المطلق، فالله كبير ليس بعد كبره شيء.

وليس لنا أن ننصرف إلى فكرة التفضيل ونحن نتلو قوله ـ سبحانه ـ : « إلا ابتغاءَ وجهِ ربِّه الأعلىَ » (٢٠ سورة الليل). إن « الأعلى » في الآية هي « أفعل » من العلو والعلاء وان اضافتها إلى « الحق » ـ سبحانه ـ تنفي عنها التفضيل وتثبت أنها من صفات الكمال المطلق.

ولعل شيئاً مما لايراد به التفضيل وصف « المسجد » بـ « الأقصى » في قوله تعالى: « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » (١ سورة الإسراء). ألا ترى أن وصف « المسجد » بـ « الأقصى » نظير وصف « المسجد » في السورة نفسها « بالحرام »؟ وكما يكون الأول وصفاً فالثاني وصف، وإرادة الوصف بـ « البعد » أقرب من إرادة التفضيل من أنه « أقصى » من غيره.

ولا أرى أي شيء يدفع إلى تصور التفضيل وأنه أسبق من غيره في الذهن حين نقرأ قوله ـ تعالى ـ : « وجاء رجل من أقصى المدينة » (٢٠ سورة القصص).

وإذا كنا نلمح التفضيل في قوله تعالى:

« إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى » (٤٢ سورة الأنفال).

فإننا لأميل إلى أن نغفل هذه الفائدة بجنب إرادة الوصف ليس غير. إن إغفال معنى التفضيل وعدم ارادته حاصل في كلمة «الدنيا» فهي مؤنث «أدنى»، ولكنها تقابل «الآخرة» وهذه الأخيرة قد تحولت إلى الإسمية بعد طي الموصوف الذي هو «الحياة» أيضاً.

وليس شيء من التفضيل في قوله تعالى: ـ
لِنُرِيَكَ من آياتنا الكبرى» (٢٣ سورة طه).

إن «الآيات الكبرى» هي آيات الله العظيمة في دلالاتها وعظمتها فليست هي «أكبر» من غيرها. ولكننا حين نقرأ قوله ـ تعالى ـ:

وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا (٤٠ سورة التوبة). ندرك ان «السفلى» يراد بها التفضيل فهي في «أسفل» درجة، ومن هنا كانت «العليا» مقابلةً «للسفلى»، وهي مفيدة للتفضيل بالمقابلة.

ومثل هذا نقول في قوله ـ سبحانه ـ:
«..... ويَذهبا بطريقتكم المثلى» (٦٣ سورة طه).
«فقد استمسَكَ بالعروة الوثقى» (٢٥٦ سورة البقرة).

والقليل من ثاقب النظر يهدي إلى أن «المثلى» و «الوثقى» وان كانتا مادتي تفضيل فالمراد منهما شيء يعلو عن هذا فالطريقة وان كانت «امثل» طريقة فهي كذلك لا ارادة للتفضيل بل وصفاً كما هو في الغاية المتناهية لما هو «أمثل».

وكذلك نقول في «الوثقى» التي هي «فُعلى» وزناً مفيداً للتفضيل انصرف إلى شيء آخر وهو كمال الاتصاف بالوثوق، وليس التفضيل إلا القليل اليسير مما يترشح من هذه الكلمة في هذه الصيغة.

أقول: ان لم يكن هذا هو السبيل إلى فهم هذه الفرائد الربّانية فكيف نفهم قوله تعالى: اقرأ وربُّك الأكرم (٣ سورة العلق).

وليس في خلقه ـ سبحانه ـ في الأرض ولا في السموات ولا في العوالم

التي نجهلها من هو أكرم منه، تعالى الله ربي ـ سبحانه ـ عن ذلك علّواً كبيراً .

وقال النحاة: لايبنى « أفعل » التفضيل من الفعل الذي يجيء الوصف منه على « أفعل، فعلاء » نحو أحمر ونحو ذلك.

أقول: والقاعدة سليمة، وكان على الدارسين أن يُعنوا بما أثِر من ذلك عن النحاة الكوفيين الذين أجازوا أن يصاغ « أفعل » من السواد والبياض، وعلى هذا الرأي يصح أن نقول: هذا أبيضُ من هذا، وهذا أسود من هذا.

وأقول أيضاً: وعلى هذا جرى المتنبي في قوله في الشيب:

أبعَدْ بعِدتَ بياضاً لابياضَ له لأنت أسودُ في عيني من الظلم

وليس للنحويين ولا للنقاد من اللغويين أن يحملوا قول المتنبي هذا على الخطأ ويعدوه من سقطاته ومساوئه.

وإذا كان هذا فلنا أن نقول: لقد أخلّ النحويون الأقدمون في استقرائهم، وأنهم لم يفيدوا من لغة التنزيل الفوائد الوافية، ولو كان لهم ذلك لأدركوا مافي قوله ـ تعالى ـ.

ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا (٧٢ سورة الإسراء).

ان « الأعمى » في قوله « ومن كان في هذه أعمى » صفة من العمى كالأحمر والأعرج والأقنى وغير ذلك، ولكن « الأعمى » في تمام الآية « فهو في الآخرة أعمى » شيء أريد به التفضيل، وكأن المراد « أشدّ عمىً » بدلالة المعطوف وهو قوله: « وأضلّ سبيلا ». والتفضيل هنا شيء يقتضيه الجزاء والعقاب، أي أن الذي قد عمِي عن الهدى والرشاد في الدنيا فهو أشد عمىً في الآخرة وأضل سبيلاً جزاءَ ماقدَّم من سوء في دنياه.

وليس من شك ان « أعمى » الثانية التي ترشحت لافادة التفضيل هي من الأفعال التي يأتي منها الوصف على « أفعل فعلاء » فلا يجوز أن يبنى منها اسم

التفضيل على « أفعل » بل يصار في ذلك إلى « أشد » ونحوها متلوة بالمصدر منصوباً فيقال: هو أشد حمرة من غيره، وهذا أكثر عمىً من صاحبه. غير أن الآية ومجيء « أعمى » فيها على ارادة التفضيل تفصح ان ما استشعره الكوفيون وقيّدوه بالسواد والبياض شيء له أساس متين بدلالة ماورد منه في الآية التي وقفنا عليها.

وكنا قد أشرنا إلى ماورد في سورة البقرة وغيرها من السور من مجيء « أفعل » فيها غير دال على شيء من تفضيل نحو قوله:

« ولكن أكثر الناس لايشكرون » (٢٤٣ سورة البقرة).

ولابد من وقفة قصيرة على كلمتي « خير » و « شر » في كلام الله ـ سبحانه ـ فنقول: وردت هاتان الكلمتان في أسلوب من التفضيل في جملة من الآي الشريف بدلالة ذكر المفضل عليه ظاهراً أو مقدراً نحو قوله ـ عز من قائل ـ :

« أفَمنْ أسَّسَ بُنيانَه على تقوى من الله ورضوان خيرٌ أم مَن أسَّسَ بُنيانه على شفا جرف » (١٠٩ سورة التوبة).

« ليلة القدر خير من ألف شهر » (٣ سورة القدر).

« أصحاب الجنة يومئذٍ خيرٌ مستقرّاً وأحسن مقيلا » (٢٤ سورة الفرقان). ومن ذلك ماجاء في كلمة « شر » لارادة التفضيل قوله ـ تعالى ـ:

« قل هل أنبِّئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله » (٦٠ سورة المائدة).

« أولئك شرٌّ مكاناً وأضلٌّ عن سواء السبيل » (٦٠ سورة المائدة).

وكأنّ كلمتي « خير » و « شر » جاءتا من « أخير » و « أشر » ثم تحولتا في الشيوع والاستعمال إلى « خير وشر » وظلتا تفيدان أسلوب التفضيل كما دلت الآيات المذكورة وغيرها كثير.

ولم يؤثر في القراءات ولا في كتب العربية شيء من الأصل وهو « أخير

وأشرّ» إلا ماورد في «نقض» أبي جعفر الاسكافي للعثمانية[1] فقد قيل:

خطب مروان والحسن ـ عليه السلام ـ جالس فنال من عليّ ـ عليه السلام ـ، فقال الحسن: ويلك يامروان! أهذا الذي تشتم أشرّ الناس، قال: لا، ولكن خير الناس.

لقد وردت كلمة «أشرّ» على «أفعل» للتفضيل، وقد غلب عليها كلمة «شر». وقد جاء في القراءات قراءة أبي قلابة «الأشرّ» على «أفعل» بمعنى الشرّ: «سيعلمون غداً من الكذّاب الأَشَرّ» (٢٦ سورة القمر).

والقراءات في هذه الآية وما هو مثبت في مصاحفنا «الأشِرْ» على «فَعِل» من «الأَشَر» المصدر مثل «الفِرح» من «الفَرَح». ومن المفيد أن نشير ان كلمتي «أخيَر» و «أشرّ» للتفضيل جاريتان في الألسن الدارجة على الأصل.

ولابد أن نشير أيضاً ان هاتين الكلمتين تحولتا من بناء للتفضيل إلى الاسم الذي لايعني التفضيل، بل قل إلى شيء كاسم المصدر نحو نبات وسلام ونحوهما ومن ذلك ماورد من قوله ـ تعالى ـ:

«ان الإنسان خُلِقَ هَلوعا ● إذا مسه الشَّرُّ جَزوعا ● وإذا مسّه الخَيرُ مَنوعا» (١٩، ٢٠، ٢١، سورة المعارج).

ومن غير شك أن «الشر» و «الخير» في الآيتين ينصرفان إلى الاسمية «فالشرّ» هو السوء والضلال مثلاً، و «الخير» هو الهدى والرشاد ونحوهما. وليس أدل على هذا من جمع هذين الاسمين فقالوا: شرور، وخيرات.

ولنختم هذا الفصل بما ورد من الآي الشريف مما ورد فيه بناء أفعل وهو منصرف للتفضيل وغيره من الفوائد:

قال ـ تعالى ـ:

«ذلك أزكى لكم وأطهَرُ» (٢٣٢ سورة البقرة).

---

(٢) العثمانية ص ٢٨٣.

« فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين » (٩٨ سورة الصافات) .

« أولم يعلمْ أنَّ الله قد أهلك من قبله من القرون مَن هو أشدُّ منه قوّةً وأكثر جمعا » (٧٨ سورة القصص) .

« ومَن أظلمُ ممَّنْ مَنَعَ مساجدَ الله أن يُذكَرَ فيها اسمُه » (١١٤ سورة البقرة) .

« قال ياقومِ أرهطي أعَزّ عليكم من الله » (٩٣ سورة هود) .

« فقال لصاحبه وهو يُحاوره أنا أكثرُ منكَ مالاً وأعزُّ نَفَراً » (٣٤ سورة الكهف) .

« أولئك أعظم درجةً من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » (١٠ سورة الحديد) .

« هم للكفر أقربُ منهم للإيمان » (١٦٧ سورة آل عمران) .

« ولَتجِدَن أقربَهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى » (٨٢ سورة المائدة) .

« للرجال نصيبٌ مِمّا تَرَكَ الوالدانِ والأقربون » (٧ سورة النساء) .

« ذلك أقْسَطُ عند الله وأقوَمُ للشهادة وأدنى ألّا ترتابوا » (٢٨٢ سورة البقرة) .

« إن تَرَنِ أنا أقلَّ منكَ مالاً وولداً فعَسَى ربي أن يُؤتينِ خيراً من جَنَّتك » (٣٩ سورة الكهف) .

« إن هذا القرآنَ يهدي للّتي هي أقوَمُ » (٩ سورة الإسراء) .

« والفتنةُ أكبر من القتل » (٢١٧ سورة البقرة) .

« ولَذكرُ الله أكبرَ » (٤٥ سورة العنكبوت) .

« إلاّ من تَوَلّى وكَفَر فيُعذِّبُه الله العذابَ الأكبر » (٢٣ ، ٢٤ سورة الغاشية) .

« إنها لإحدَى الكُبرَ » (٣٥ سورة المدثر) .

« كالذين من قبلكم كانوا أشدّ منكم قوةً وأكثر أموالاً وأولاداً » (٦٩ سورة التوبة) .

« ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاّ هو معهم أين ماكانوا » (٧ سورة المجادلة).

« ان أكرمَكم عند الله أتقاكم » (١٣ سورة الحجرات).

« إن انكر الأصوات لصوت الحمير » (١٩ سورة لقمان).

« قالت أُخراهم لأولاهم ربّنَا هؤلاء أضلّونا » (٣٨ الأعراف).

وبعد فهذه جملة آيات اجتزأت بها لتكون مادة وافية في إثبات ان بناء « أفعل » يجيء للتفضيل متلواً بالمفضل عليه مجروراً بـ « من »، وقد يأتي غير متلوّ يُلمح تقديراً. ثم إن من هذا مادة أخرى يرد فيها هذا البناء وهو يشير إلى فائدة خاصة.

وقد بدا لي أن أعرض للعربية المعاصرة لأشير إلى ورود « أفعل » التفضيل على نحو لانعرفه في العربية الفصيحة التي جرت عليها لغة التنزيل. وإن القول بخطأ هذه الأنماط الحديثة في لغة المعاصرين المنطوقة والمكتوبة غير كاف، وذلك لان هذه الأنماط من الشيوع بحيث صارت « لغة جديدة ».

ومن ذلك مثلاً مانسمعه في خطب رجال السياسة والحاكمين، وفيما يكتبون للإعراب عن « الوضع » السياسيّ، فأنت تسمع وتقرأ بين الحين والآخر:

ان « منطقة الشرق الاوسط » بين « القوّتين الأعظم » (كذا).

وقولهم: « القوتين الاعظم » يراد به أمريكا وروسيا.

أقول: كأن هؤلاء السياسيين العرب قد جهلوا العربية ففقدوا الأحساس بالصواب عند الشروع في الإعراب بها، وذلك يدفعهم للتأثر بالأساليب الأعجمية مما هو جار في بعض اللغات الغربية عن طريق الترجمة، ولم يكن الذين يقرأون في اللغات الغربية، والتراجمة منهم، على علم بالعربية يعصم أساليبهم من هذا التأثر الذي حمل الضيم على العربية المعاصرة. ألا ترى أن الصفة في الانكليزية تبقى في حالة الإفراد إذا كان الموصوف جمعاً؟.

ولم يدرك هؤلاء ان الأسلوب الفصيح في العربية أن يقال:

« القوّتان العظميان » وذلك لأن « أفعل » التفضيل المحلّى بالألف واللام لابد أن يطابق المفضَّل السابق فتقول:

الرجل الأكبر، والمرأة الكبرى، والرجلان الأكبران، والنساء الكُبْرَيات أو الكُبَر، والرجال الأكابر أو الأكبرون.

وهذا كقوله تعالى:ــ

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلون » (١٣٩ سورة آل عمران).

« تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى » (٤ سورة طه).

على أن من المفيد أن نستدرك على ما بيّناه في أول هذا الفصل من أن الوصف بالمفرد المؤنث للموصوف الجمع المؤنث كان بسبب ابتعاد هذا الوصف عن معنى التفضيل فكان ذلك مما يخيل إلى الدارس انه ابتعاد عن قاعدة « المطابقة » كقوله تعالى:

« لنُرِيَكَ من آياتنا الكبرى » (٢٣ سورة طه).

وعلى هذا فقول أهل السياسة « القوّتان الأعظم » خطأً قبيح، ولعلهم يستطيعون إدراك الخطأ لو قيل لهم: أيجوز أن نقول: القوّتان العظيمة (كذا) لكان جوابهم كما أتوقع: إنه غير جائز وذلك للإحساس بالصواب الذي هو المطابقة بين الموصوف والصفة، ولكنهم في قولهم: « القوتان الأعظم » غير شاعرين بارتكاب الخطأ.

ومن هذه الأساليب الجديدة التي لاتتبع نظام العربية الفصيحة في هذه المسألة قول المعربين في عصرنا كما نسمع ونقرأ مثلاً:

والأمية أحد أكبر المشاكل في عصرنا.

والفقر أحد أعظم المآسي في العالم المعاصر.

ولابد من وقفة قصيرة على هذا وما يكون منه في كل يوم مما تنشره الصحف والكتب ووسائل الإعلام.

ولنرجع إلى شيء قديم في هذا فنقول: من أحوال اسم التفضيل أن يأتي

مضافاً، والاضافة إمّا لمعرفة وإمّا لنكرة، فإن كانت الأولى فلابد من المطابقة كقوله ـ تعالى ـ:

«وما نراك اتبّعك إلاّ الذين هم أراذلنا» (٢٧ سورة هود).

وقد كنا أشرنا إلى هذه الشواهد من لغة التنزيل وغيرها في أول هذا الفصل. وإذا عدنا إلى استعمال المعاصرين مما أثبتنا من نماذجه كان علينا أن نحمل ذلك على الخطأ الذي مردّه فقدان الإحساس بالصواب، وإذا كان هذا فالأساليب الأعجمية تجد سبيلها إلى العربية لبعد القارىء لتلك الأساليب الأعجمية عن العربية وجهله بنظام العربية في لغة التنزيل ولغة أهل اللسن والفصاحة.

وكان على هؤلاء أن يقولوا:

والأمية احدى كُبرَيات المشكلات (أو المشكلة) في عصرنا.

فالمطابقة واجبة، ثم إن «المشكلة» مؤنث فصفتها «إحدى» وليس «أحد» كما ورد.

والفقر إحدى عُظمَيات المآسي....

ومن المفيد أن انبّه إلى أن المعربين في عصرنا يلتمسون التأنيث من الجمع إذا كان هذا الجمع يسبقه لفظ من العدد فيذكّرون لفظ العدد فيقولون مثلاً: «إحدى الأسباب» وفاتهم ان المراعاة تقضي ان يُرجَع إلى المفرد وهو «السبب».

ومن هذا الخطأ الجديد في استعمال اسم التفضيل ماسأبسطه بين يَدي القارىء فأقول:

لقد صدر في بغداد سنة ١٩٦٣ ملحق تشريعي يتصل بقانون الخدمة المدنية يتم بمُوجبه احتساب السنوات الدراسية التي يقضيها الموظف المثبّت في وظيفته، الذي ترك الوظيفة والتحق بإحدى الكليات للدراسة والحصول على الشهادة فيها، من سني الخدمة التي تحتسب له بعد رجوعه إلى الوظيفة على أن يؤدي عنها الاستقطاعات التقاعدية.

ويقضي هذا التشريع في تطبيقه أن تكون السنوات المحتسبة أقل ما يمكن أن يحصل فيها الدارس على تلك الشهادة، كأن يكون لشهادة البكالوريوس أربع سنوات ولشهادة الماجستير سنتتان، وللدكتوراة أربع سنوات.

وقد جاء في التعبير عن عدد السنوات في نص التشريع مايأتي: تحسب المدة الأصغرية (كذا).

أقول: لقد قرأ أهل العلم بالعربية هذه «الأصغرية» فابتأسوا وحزنوا على ما أصاب هذه اللغة في هذا اللغط الذي سجله «تشريع» في حكومة عربية. ومن غير شك أن ارتكاب هذه الرطانة كان بسبب من الجهل بالعربية الذي أورث فقدان الإحساس بالفصيح الجيد.

إن استعمال وجه الصواب سهل وجميل فيه خفّه ورشاقة، فلو أنهم قالوا: «تحتسب المدة الصغرى» وما أسهلها، لكانوا أصابوا وتجنبوا هذه «الأصغرية».

أقول: كأن الذي دفعهم إلى هذا الارتكاب شعورهم أنهم لو وصفوه بـ «الأصغر» لاضطرب الأمر بين الموصوف والصفة من حيث التذكير والتأنيث، ولجهلهم ان «الصغرى» مؤنث «الأصغر» لجأوا إلى هذه النسبة التي لايوجد مايسوِّغها إلاّ ارتكاب الثقيل من الخطأ.

ولعل من المفيد أن أشير إلى أن المعربين في عصرنا قد فقدوا الإحساس بالصواب حيناً، والإحساس بالجميل الفصيح المليح حيناً آخر، فكان من ذلك أن لجأوا إلى النسبة في ألفاظ يُجنى على خفتها في هذه النسبة فقالوا: الأعمال التعبوية، والممارسات التصفوية، والمشاريع التنموية، ثم جاء أصحابنا المحمولون على «علم اللغة» فقالوا: النظرية البنيوية.

أقول: ولو أن هؤلاء لجأوا إلى «الإضافة» فقالوا أعمال التعبئة، وممارسات التصفية، ومشاريع التنمية، ونظرية البنية اللغوية، لكانوا في طريق لاحب من الفصاحة بعيد عن هذا الكلم الثقيل بسبب النسبة التي كان عنها مندوحة. ومنذ زمان بعيد قلنا: «علم النفس التربوي».

ومن تطبيقات اسم التفضيل في العربية المعاصرة أن أهل هذا العصر صاغوه على « أفعل » من غير الثلاثي فقالوا مثلاً: « الشارع الفلاني أزحم من غيره » وأخذوا ذلك من كونه مزدحماً لامن « الزحمة » الثلاثية، كما قالوا: « هو أرتب من أخيه » واخذوه من « الترتيب ».

وهذا كله راجع إلى أن الفصيحة المعاصرة تتأثر بالألسن الدارجة فالعامة يشتقون « أفعل » من غير الثلاثي فهم يقولون: « هذا الجذع أجبر من ذاك » وقد أخذوا هذا من الوصف المضاعف وهو « الجبّار »، كما أنهم صاغوا « أفعل » مما ورد منه الوصف على « أفعل فعلاء »كقولهم: هذا أبيض من هذا، وذاك أسود من صاحبه.

وقد أشرنا في هذا الفصل إلى أن في أساليب العربية الفصيحة مايعين على فهم هذا وقبوله. لقد قال الأوائل من أهل العربية أن العرب قالوا في امثالهم:

ألصُّ من شِظاظ، و« شِظاظ » اسم من بني ضبّة ضربوا به المثل في اللصوصية كما قالوا: هو أخصر من غيره، وهو أعطاهم للدراهم، وأولاهم للمعروف. وأفعل في « ألص » من الاسم وهو « اللص »، وفي الأمثلة الأخرى من الرباعي .وقالوا: هو أزهى من ديك، وأعنى بحاجتك، وفي المثل:

« أشغل من ذات النحيين » وهذا كله قد جاء « أفعل » فيه من المبني للمفعول خلافاً للمشهور.

وبعد فهذه إلمامة بهذا الأسلوب في العربية أنشأتها مفيداً مما ورد في لغة التنزيل.

أسلوب المدح والذم
في
لغة التنزيل

كنت قد جريت على عرض أنماط من العربية اتخذتها أساليب حفلت بها لغة التنزيل العزيز، ولم أر أن من العلم أن يقتصر فيها على أقوال الجهابذة من النحاة. وربما بدا لي أن النحاة قد ضلوا الطريق في تناول هذه الفرائد العربية التي أفدناها مما جاء في كلامه ـ سبحانه ـ.

ومن أجل استكمال هذه البسطة الجميلة رأيت أن أعرض لأسلوب المدح والذم فأقول: ان أسلوب المدح والذم من المعاني التي جرت فيها العربية على أن تؤدّى بالفعل وفي حيّز الجملة الفعلية على أن يكون الفعل حدثاً مفرّغاً من دلالة الزمان على نحو ماكان في سائر الأساليب التي أفادت معاني خاصة كالدعاء والرجاء والتمني وغير ذلك.

ولعل من الخير أن أبدأ بما شغل به النحاة أنفسهم فأقف على أجزاء ذلك بشيء من التعليق ثم أخلص من ذلك إلى الكلام عليها جملة.

قال النحاة في «نعم» و «بئس»:

انهما فعلان عند البصريين والكسائي بدليل «فبها ونعمت»، واسمان عند باقي الكوفيين بدليل «ساهي بنعم الولد».

تعليق:

القول انهما فعلان مقبول، ذلك ان جملة قولنا: نعم الولد محمد، وبئس الكسب الربا، من الكلام الذي يندرج في ترتيبه في الجمل الفعلية، ثم ان

المراد في هاتين الجملتين مدحاً وذمّاً مما يمكن أن يؤدّى بالأفعال، ولاأتخذ من تاء التأنيث في « نعمت » دليلاً على ماأردت. إذن كيف نقول في مقالة الكوفيين « أنهما اسمان »؟

أقول: استدل الكوفيون بكلمة الأعرابي الذي أخبر أن امرأته ولدت بنتاً له فقال: والله ماهي بنعم الولد، نصرها بكاء، وبرها سرقة.

هذه مقالة يتيمة زعم أن اعرابياً لا ندري حقيقته قد قالها، ولا أريد في كلامي هذا أن أسرع فأسلق هذه المسألة متعجلاً بحملها على الكذب، ولكني أقول: اننا لم نسمع في كلامهم شيئاً من هذا فكيف نحكم على شيء لم يشع في كلامهم؟

وأذكر أن كتباً من كتب النحويين قد ذكرت شيئاً يومىء إلى أنه من صنع « النحارير » الذين حملوا على العربية من القول المصنوع واللفظ المفتعل الشيء الكثير، وهو قولهم: نعم السير على بئس العَير، فكما قالوا: « ماهي بنعم الولد » فأدخلوا الخافض على « نعم » فعلوا مثل ذلك في « بئس ».

وقال النحويون في وصف « نعم وبئس » انهما « جامدان »...

وهذا مقبول أيضاً، فإذا كانا جامدين لأداء هذا المعنى الخاص وهو المدح أو الذم فكيف نقول معهم إنهما فعلان ماضيان؟!

أقول: كان النحاة الأولين قد فرّغوا مصطلح « الماضي » من الدلالة على الزمن الماضي، والدليل على هذا ادعاؤهم أن « نعم وبئس » من الأفعال الماضية، وكيف لنا أن ندرك معنى الماضي في كلمتين خلصتا للمدح والذم ليس غير؟ ثم قالوا:

إنهما رافعان لفاعلين بأل الجنسية نحو: نعم العبد وبئس الشراب.

أو بالإضافة إلى ما قارنها نحو: ولنعم دار المتقين، فلبئس مثوى المتكبِّرين.

أو بالإضافة إلى مضاف لما قارنها كقولهم:

فنعم ابن أخت القوم غيرَ مُكَذّبِ

أو أنهما رافعان لفاعلين مضمرين مستترين مفسَّرين بتمييز نحو: « بئس للظالمين بَدَلا » وكقول الشاعر:

نعم امرءاً هرمٌ لم تعرُ نائبة إلاّ وكان لمرتاع لها وزرا

واختلفوا في الجمع بين التمييز والفاعل الظاهر فمنعه جماعة وأجازه آخرون.

واختلفوا في « ما » بعد نعم وبئس....

وقالوا في اعراب المخصوص بالمدح أو الذم بعد فاعل نعم وبئس انه مبتدأ والجملة قبله خبر، وقالوا: إنه خبر لمبتدأ واجب الحذف.

وبعد هذه النبذة الموجزة لما ذكره النحاة في هذا الباب أخلص لما ورد في كتاب الله من هذه الأشتات المفيدة فأثبت قوله تعالى:

سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار (٢٤ سورة الرعد).

ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين (٣٠ سورة النحل).

أولئك لهم جنّات عَدْنٍ تجري من تحتهم الأنهار يُحَلّون فيها من أساورَ من ذَهَب ويَلبَسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متّكئين على الأرائك نعم الثواب وحَسُنَتْ مُرتَفَقا (٣١ سورة الكهف).

واعتصموا بحبل الله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير (٧٨ سورة الحج).

ووَهَبنا لداود سليمانَ نعم العبد إنّه أوّاب (٣٠ سورة ص).

أقول: في هذه الآيات التي اجتزأنا بها عن غيرها جميع الصور التي وردت في استعمال « نعم » من كون مابعدها، ولا أسمّيه فاعلاً، جاء مضافاً إلى معرّف بالاداة كما جاء معرفاً بالأداة نحو « نعم الثواب ». ولكنك قد تجد من العسير أن تقدّر ما أسماه النحاة بـ « المخصوص بالمدح » نحو « زيد » في

قولهم: « نعم الرجل زيد » في هذه الآيات، وهي ليست محتاجة أو مفتقرة إلى هذا « المخصوص » بالمدح، ولو أنك اتعبت النفس فوصلت إلى تقديره لوجدت أنك قد تكلفت وتصنعت وابتعدت عن الكلام البليغ الذي يقتضي الايجاز في هذه الأساليب.

ولنقل شيئاً آخر وهو:

لننظر إلى اللام في قوله تعالى « ولنعم دار المتقين » ولا أريدك أن تثبت لها هوية فتسميها ماتريد من « التوكيد » أو « الابتداء » ولكني أحملك على النظر في الجزء السابق من هذه الآية التي بدئت بهذه اللام وهي قوله ـ سبحانه ـ « ولدار الآخرة خير »، ألا ترى أن قوله بعد ذلك « ولنعم دار المتقين » قد خدم مادة التناسب في جزأي الآية، وان « نعم دار المتقين » ابتعدت بعداً ما عن حيز الجملة الفعلية المؤلفة من الفعل والفاعل؟

وهل لنا أن نقول ان « دار المتقين » فاعل « نعم » وكيف اتصف هذا « الفاعل » بالحدث « نعم » أو « قام » به؟ وهل سوغ كونه مرفوعاً ان يكون فاعلاً ؟

ثم إننا وقفنا على قول النحاة ان « نعم » فعل ماض للمدح، وأشرنا إلى انعدام الزمن في هذه الفنون من القول في العربية.

ولقد عرضت لقول النحاة أن « نعم » تتلوها كلمة « ما » وهي معرفة ناقصة أي موصولة كما في قوله تعالى: « فنِعِمّا يعظكم به » (٥٨ سورة النساء).

أي: نعم الذي يعظكم به.

ومعرفة تامة في نحو قوله تعالى: « إن تُبْدوا الصدقات فنِعِمّا هي » (٢٧١ سورة البقرة).

أقول: وقد صاغ النحاة على هاتين الآيتين في مجيء « ما » بعد « نعم » قولهم مثلاً: نعم ماتسعى إليه النجاح.

غير أني استبعد أن يكون هذا من ذاك أو نظيراً: وقالوا في « ما » في الآية الثانية: إنها تمييز وهي نكرة تامة، كما كانت ناقصة موصوفة في الآية الأولى. ولا أدري ما حقيقة الفرق في « ما » في الآيتين، وليس لي أن اقتنع بقولهم: إن النكرة الناقصة وهي « ما » في الآية الأولى، لأنها اسم موصول يفتقر إلى الصلة.

كما لا أقول بما قالوه في الثانية انها تامة، وأين تمامها؟ ألم تفتقر إلى ماجاء بعدها وهو الضمير « هي »؟!

وأخلص من جماع هذا إلى أن « نعم » في هذه الآيات وغيرها مادة فعلية يراد بها مع متلوها الاعراب عن المدح والاستحسان.

ولنقف قليلاً على قوله تعالى في آية سبقت الإشارة إليها وهي:

نعم الثواب وحسنت مرتفقا (٣١ سورة الكهف).

ولقد ذكرت هذه الآية بتمامها لأشعر الدارس إلى أن أمر تقدير ما يدعى بـ « المخصوص بالمدح » شيء صعب عسير، ذلك ان مجموع الآية قد عُبّر عنه بـ « نعم الثواب » وهذا يشتمل على أشياء عدة هي:

« أولئك لهم جنات عَدْنٍ تجري من تحتهم الأنهار » وليس هذا وحده بل زيد قوله تعالى: « يُحَلَّون فيها من أساورَ من ذهب » ثم زيد على ذلك فقال ـ عزّ من قائل ـ:

« ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق » ولم ينته هذا إلا بقوله « متكئين على الارائك » ومادة هذه الاشتات أشير إليها بعبارة ثناء وإطراء ومدح وبُشرى فقال ـ تعالى ـ « نعم الثواب .... ».

ثم لابد من وقفة على قوله « وحَسُنَتْ مُرتَفَقا » فأقول:

لقد أحسَّ النحاة ان هذا الفعل جاء بعد قوله « نعم الثواب » فأضافوه إلى المدح ولكنهم جروا على أن يكون لقولهم مايشبه القاعدة الثابتة فزعموا ان ماجاء على « فَعُل » من هذه الجمل مفيد للمدح وهو نظير « نعم ».

أقول: ليس لي أن انكر أن الفعل « حسنت » في الآية مفيد للمدح، ولكني أستبعد أن ينقل النحاة مجموع ما ورد في هذا البناء الفعلي إلى المدح ويستعملوه استعمال « نعم » فقالوا: كَرُم الرجل زيد.

وأقول أيضاً: إن سبيل هذا مقيد بما أثر من السماع فإذا كان المسموع الثابت نظير ما ورد في الآية فهو حق مقبول، ولكنا لانقتنع بالأمثلة المصنوعة على الطريقة النحوية من « زيد وعمرو ». وعلى هذا فليس من أصالة وصدق وقوة في قولهم: « كَرُمَ الرجل زيد ».

وقد وَسَّع النحاة هذه الأفعال فقالوا: وكل فعل حُوِّل من « فَعِلَ » نحو « فَهِمَ » إلى « فَعُلَ » نحو: « فَهُمَ » استعمل هذا الاستعمال في ارادة المدح فقالوا: « فَهُمَ الرجل زيد » وعزَّ عليهم ان يأتوا بشاهد أصيل من آية أو حديث أو قول مأثور أو شعر من هذا. وعلى هذا فقولهم: « فَهُمَ الرجل زيد » ليس بشيء.

وإذا كان هذا هو الكلام على « نعم » فحقيق أن لايكون الكلام غيره في « بئس ». إن « نِعْمَ » شيء من فعل ترشح في قديم تاريخ العربية من الفعل « نَعُمَ » ولكنه لزم بناءً خاصاً فانصرف إلى جمود، وكذلك « بئس » قالوا إنها للذم وهي فعل قديم لزم الجمود في بنائه مبتعداً عن الفعل المشهور « بَؤُسَ ».

قلت ان هذين الفعلين لزما الجمود ففقدا الكثير من فعليتها وأهمها الدلالة على الزمن. وقد نقول مثل هذا في « حَسُن » التي ترشحت لأداء معنى المدح في قوله تعالى: « حسنت مرتفقا »، ألا ترى ان المراد إثبات الحسن ليس غير، وانها تفرغت من الدلالة على المضي.

ولعلي لا أتردد في القول ان الكثير من الأفعال الدالة على الصفات العارضة أو الثابتة مما جاء على « فَعُلَ » أو « فَعِل » أفعال تؤدي الحدث واتصاف الشيء بذلك الحدث اتصافا عارضاً أو لازماً وليس من دلالة زمنية فإذا قلت مثلاً:

نَبُلَ الرجل وعَظُمَ وكَبُر وصَغُرَ، فانما أريد اثبات هذه الأحداث على طريقة الثبات واللزوم في المتصف بها من الأناسي وغيرهم.

وقد يتأتى لي أن أقول مثل ذلك في كثير مهما جاء على بناء «فَعِلَ» كقولي:

عَمِيَ زيد، وخَضِرَ الزرع، وكَحِلَت عين فلان.

لا أريد في هذه الأفعال أنه عمي في الزمن الماضي وكذلك في القول في «خَضِرَ» و كَحِلَ». وليس لي أن أذهب في «فَعِلَ» ماذهبت إليه في «فَعُل» وذلك لاننا نجد في بناء «فَعِلَ» أفعالاً كثيرة متصفة بالزمن الماضي نحو فَهِمَ وعَلِمَ وفَرِحَ.

وقد جاء الفعل «حسن» يفيد المدح مقيّداً بهذا الاستعمال الخاص وهو قوله تعالى:

وحسن أولئك رفيقا (٦٩ سورة النساء).

ولو كان لنا أن نتلو الآية كلها لأدركنا أن مسألة لمح ما يُسمىّ بـ «المخصوص بالمدح» لا يملك إلا ضوءاً خافتاً في مجموع الآية ودونك قوله ـ عز من قائل ـ:

«ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقا» (٦٩ سورة النساء).

وليس لنا كذلك في هذه الآية أن نصل إلى شيء من «المخصوص بالمدح» في قوله تعالى:

«أولئك يُجزَون الغُرفةَ بما صَبَروا ويُلَقَّون فيها تحيّةً وسلاما* خالدين فيها حَسُنَتْ مُستَقراً ومُقاما» (٦٩ سورة الفرقان).

ومن المفيد أن آتي على الآيات التي جاءت فيها «بئس» لنرى أنها تختلف في استعمالها عن استعمال «نعم» من كون متلوّها معرفاً بالأداة أو مضافاً إلى المعرف بها، وقد يأتي بعدها تمييز منصوب أو كلمة «ما»، وقد اشرنا إلى

قول النحاة في هذا ودونك الآيات الشواهد: قال ـ تعالى ـ:

ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير (١٢٦ سورة البقرة).

أخذته العِزّة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد (٢٠٦ سورة البقرة).

ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين (١٥١ سورة آل عمران).

واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس مايشترون (١٨٧ سورة آل عمران).

وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليُؤمنْ ومن شاء فليكفرْ إنا أعتَدْنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرادِقُها وإنْ يستغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمُهْل يشوي الوجوهَ بئسَ الشرابُ وساءت مُرتَفَقا (٣١ سورة الكهف).

وهم لكم عدوٌّ بئس للظالمين بَدَلا (٥٠ سورة الكهف).

ولا تَنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان (١١ سورة الحجرات).

أقول: قد يقول الدارسون ان هذه الآية قد ذُكر فيها المخصوص بالذم بعد الاسم التالي للفعل «بئس»، ولكني أقول ان هذه الآية ليست من قبيل أمثلة النحاة نحو «بئس الرجل زيد» وذلك لأن «الفسوق» شرح للاسم وبيان عنه وكأن المراد «بئس الفسوق بعد الايمان».

واختتم هذه الآيات الشواهد بقوله ـ سبحانه ـ:

فبئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله (٩٠ سورة البقرة).

ووردت «بئس» هذه موصولة بـ «ما» في الرسم، وليس في ذلك شيء يقال لأنه رسم ليس غير، و«ما» على نحو ماقالوا فيها بحسب ماذهبوا إليه، والذي أراه أن «ما» هذه هي «ما» التي جاءت بعد «نعم» في قوله ـ تعالى ـ «ونِعِمّا هي»، وهي شيء من أسلوب القرآن أو قل زيادة في تقوية الفعل.

وقد غُيِّر بناء «نعم» التي تليت بـ «ما» واتصلت بها اتصال الكلمة الواحدة في الرسم واللفظ فكسرت النون والعين وشدِّدت الميم للإدغام، ولم يعرض شيء من ذلك ل «بئس». ولعل من المهم أن نقف على الآية التي ورد

فيها قوله ـ سبحانه ـ « وساءت مرتفقا » وهي:

... كالمُهْل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مُرتَفَقا (٣١ سورة الكهف).

فاقول: إن قوله « ساءت مرتفقا » أسلوب في الذم، ويؤيد هذا أنها عطفت على قوله: « بئس الشراب »، ولما كانت هذه ذماً فالمعطوف ذمّ.

أقول أيضاً ان « ساء » ورد للذم في آيات عدّة هي:

ومن كان الشيطان له قريناً فساء قرينا	(٣٨ سورة النساء)
وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء مايَزِرون	(٣١ سورة الأنعام)
ساء مثلاً القومُ الذين كذَّبوا بآياتنا	(١٧٧ سورة الأعراف)
وأمطرنا عليهم مطراً فساءَ مطرُ المُنذَرين	(٥٨ سورة النمل)
فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا	(٩٧ سورة النساء)
بئس الشراب وساءت مُرتَفَقا	(٢٩ سورة الكهف).

أورد النحاة هذا الفعل وذهبوا فيه إلى أنه حُوِّل من « فَعَل » مثل « نَصَر » إلى « فَعُل » ليصير من الأفعال الجامدة التي خلصت للذم.

أقول: وليس من إشارة نتبينها ان يكون الفعل « ساء » قد تغير بناؤه، وذلك لأن « الذم » في « ساء » حاصل من دلالته في المعنى. ولنا أن نحمل على هذا ضده في المعنى وهو « طاب » فإذا قلنا: « طاب عليّ نفساً » ألا يكون في قولنا هذا، إن كان في الكلام قرينة خاصة، شيء من إرادة المدح؟ ثم إنْ وجدت القرينة فكان المعنى، فهل يجوز لنا أن نقول ان الفعل قد تحول في بنائه من « فَعِلَ » مثل « فَرِحَ » إلى « فَعُل » ليتأتّى لنا ان نحمله على أفعال المدح؟

اللهم إني لا أفهم هذا الافتعال!

وإذا كان معنى المدح أو الذم هو المعيار فلم لانحمل على هذا قوله ـ تعالى

كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون (٣ سورة الصف)
كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كَذِبا(٥ سورة الكهف)

ولعل من المفيد أن نقف على شيء في هذه الآيات وهو أن هذه الأساليب التي تنأى عن أسلوب الجمل الخبرية لأنها تتصل بمعنى بعيد عن تقرير الكلام واثبات الحقائق فيه، يقترب بعضها من بعض، ألا ترى أن قوله ـ تعالى ـ:
سلام عليكم بما صبرتم فنعم عُقْبى الدار (٢٤ سورة الرعد).

إن أسلوب المدح المتمثل بقوله ـ تعالى ـ: «فنعم عُقبَى الدار» جاء تاليا لأسلوب الدعاء المتمثل بقوله: «سلام عليكم».

وعلى هذا يترشح من أسلوب الدعاء معنى المدح والذم، ولنا شيء من فائدة من ذلك في قوله ـ تعالى ـ:
بُشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الانهار (١٢ سورة الحديد).

ألا ترى اننا لو اقتصرنا على بيان المسند والمسند إليه وأيها المبتدأ وأيها الخبر ولم نلتفت إلى ما يراد بـ «البشرى» من ارادة الدعاء مع المدح، لكنا أضعنا الكثير من الفوائد. ومثل هذا قوله ـ عزّ من قائل ـ:
الذين آمنوا وعملوا الصالحات طُوبَى لهم وحسنُ مآب(٢٩ سورة الرعد).

وليس الاقتصار على الفوائد النحوية ببالغ بنا محاسن هذه اللغة العلية. ثم ماذا؟

أقول: لقد أشرنا في أسلوب التعجب إلى أن النحويين ذهبوا إلى أن قوله ـ تعالى ـ

أسمِعْ بهم وأبصِرْ (٣٨ سورة مريم).
أبصِرْ به وأسمِعْ (٢٦ سورة الكهف).

من باب التعجب، وقد علقنا عل قولهم وبينا أن السياق في الآيتين بعيد عن إرادة التعجب وهو إلى أسلوب المدح والذم أقرب، وليرجع القارىء إلى باب التعجب ليكون على بينة من ذلك.

ولنأت إلى شيء آخر من هذا الباب وهو ماجاء في « حبذا » من إرادة المدح، وعكسها « لاحبذا » بسبب النفي بـ « لا » من إرادة الذم.

أقول: لم يرد من استعمال هذه المادة شيء في لغة التنزيل، ولكننا مضطرون ان نتبع ماشرعنا فيه من القول في « نعم » و « بئس » وغيرهما فنعرض لهذه الإضافة المفيدة فنبدأ بما بسطه النحاة الأوائل:

إن مذهب سيبويه أنّ « حَبَّ » فعل، و « ذا » فاعل، وأنّهما باقيان على أصلهما، وقيل: رُكِّبا وغُلِّبَت الفعلية لتقدم الفعل فصار الجميع فعلاً وما بعده فاعل، وقيل: رُكِّبا وغُلِّبت الإسمية لشرف الإسم فصار الجميع اسماً مبتدأً وما بعده خبراً.

وأجاز بعضهم أن يكون « حبذا » خبراً مقدما والاسم بعده مبتدأً مؤخراً. وبقي وجه وهو أن يكون « حَبّ » فعلاً و « ذا » ملغاة، والاسم بعدها فاعلاً، وهذا الوجه في العمل كالوجه الأول من وجوه التركيب التي ذكرها المؤلف، ولكنه غيره في التقدير.

فإذا قلت: « حبذا زيدٌ » فلك في هذه العبارة خمسة أوجه من وجوه الاعراب، أولها: أن يكون « حَبّ » فعلاً ماضياً و « ذا » فاعله، والجملة خبر مقدم وزيد مبتدأ مؤخر.

والثاني: أن تكون « حبذا » كلها فعلاً، و « زيد » فاعلاً لها.
والثالث: أن تكون « حبذا » كلها مبتدأ، و « زيد » خبراً لها.
والرابع: أن تكون « حبذا » فعلاً وفاعلاً، و « زيد » مبتدأً خبره محذوف.
والخامس: أن تكون « حبذا » فعلاً وفاعلاً، و « زيد » خبراً لمبتدأ محذوف.

وقالوا:

ولا يتغير « ذا » عن الإفراد والتذكير بل يقال: « حبذا الزيدان والهندان » أو « الزيدون والهندات »، لأن ذلك كلام جرى مجرى المثل كما في قولهم:

« الصيفَ ضَيَّعْتِ اللبنَ » يقال لكل أحد بكسر التاء وإفرادها .

وقال ابن كيسان: لأن المشار إليه مضاف محذوف: أي حبذا حسن زيد .

ورُدّ على ابن كيسان ان التقدير غير ممكن في تراكيب كثيرة من هذا الباب .

ولا يتقدم المخصوص على « حبذا » لما ذكرنا من أنه كلام جرى مجرى المثل .

وقال ابن باب شاذ: لئلا يتوهم أن في « حبّ » ضميراً و « ذا » مفعول .

وقال أيضاً:

إذا قلت « زيد حبذا » فقد يسبق إلى ذهنك ان يكون « زيد » مبتدأ ، و « حبّ » فعل ماض ، وفاعله مستتر فيه ، و « ذا » مفعول به ، والجملة خبر ، فيكون ما أشير إليه بـ « ذا » غير زيد ، مع أنه كان نفس زيد حين كان مخصوصاً مؤخراً ، فلدفع هذا التوهم التزم تأخيره .

وقد عُلِّق على هذا الكلام بأن التوهم الذي يفرّ منه لايمتنع خطوره بالذهن بسبب التأخر ، إذ تفهم أن « ذا » مفعول مقدم ، و « زيد » فاعل مؤخر ، والأصل كون المقدم الفاعل ، ولكن جواز تأخره مما لاينكر ، وأيضاً فإن معنى هذا التركيب قد اشتهر في معنى غير هذا المعنى الموهوم ، والاشتهار يبعد سبق الذهن إلى ذلك التوهم .

وقالوا :

إذا قلتَ: « حبَّ الرجلُ زيد » فحَبَّ هذه من باب « فَعُلَ » المتقدم ذكره ويجوز في حائه الفتح والضم كما تقدّم ، فإن قلتَ: « حبذا » ففتح الحاء واجب إن جعلتهما كالكلمة الواحدة .

وأعلم ان مخصوص « حبذا » يفارق مخصوص « نعم وبئس » من عدة أوجه:

الأول: أن مخصوص « نعم » يجوز تقدمه عليها نحو: « زيد نعم الرجل »

بخلاف مخصوص « حبذا » وقد مَرَّ ذكر هذا .

الثاني : أنه يجوز إعمال النواسخ في مخصوص « نعم » نحو : نعم رجلاً كان زيد بخلاف مخصوص « حبذا » فإن النواسخ لاتعمل فيه .

الثالث : إنه مع اشتراكهما في جواز اعرابها متبدأ خبره الجملة قبله ، أو خبراً مبتدؤه محذوف وجوباً ، إلاّ أن الوجه الثاني في « حبذا » أسهل منه في « نعم » من جهة أن النواسخ تدخل عليه مع « نعم » وهي لاتدخل إلاّ على المبتدأ ، فيترجح فيه الوجه الأول .

الرابع : إن تقدير التمييز على المخصوص بعد « حبذا » وتأخير التمييز عن المخصوص سواء في القياس كثير في الاستعمال ، وإن كان تقديم التمييز أولى وأكثر ، بخلاف المخصوص بـ « نعم » ، فإن تأخير التمييز عنه شاذّ في غاية الندرة .

أقول : هذه خلاصة كافية في قول النحاة الأقدمين في « حبذا » . إن مشاركة النحويين في بناء هذه العربية والحفاظ عيلها مشاركة جزيلة النفع كبيرة الأثر ، غير أننا نجد في كل باب من أبوابهم ومسألة من مسائلهم شيئاً مفتعلاً لم يهتد إليه النظر السليم .

قال سيبويه : إن « حبّ » فعل و « ذا » فاعل ، وهو قول الخليل كما نقرأ في الأصول .

أقول : وكيف للدارس الناقد ذي النظر في عصرنا أن يُسلِّم بهذا ، وذلك لان الفعل والفاعل جملة ، وحاصل الجملة الإفادة ، فأين الفائدة من « حبذا » على حد هذا القول المتقدم ، ولا أدري كيف استقر هؤلاء ومن تبعهم على هذا القول ، وهم الجهابذة العلماء النقاد ، لله أبوهم !

وكأن النحاة أدركوا أن الأمر لايتجه بهذا فقالوا ان « حبّ وذا » ركبّا فصارا فعلاً . ولكنك تجد فريقاً آخر ذهب إلى أن « حبذا » مركبة ولكنها اسم ، وقد غُلِّبَت الاسمية لشرف الاسم .

وأقول: ان استعمال « حبذا » في العربية يهدينا إلى أنها مثل « نعم » و « بئس » وهي من هنا داخلة في حيز الفعل لأن الجملة نظير الجملة الفعلية، وان معنى « المدح » مما يعبر عنه بلفظ هو الفعل أو مايشبهه، هكذا جرت العربية في أساليبها. ثم مامعنى انها صارت اسماً وغلِّبَت الاسمية لشرف الاسم، ولست أرى وجهاً اهتدي إليه في تقدير الشرَف!!

ثم إن الدارس ليرى حشداً من وجوه الرأي في اعراب الأجزاء التي تدخل في حيز هذه الجملة فأنت تجد الكلمة بعد « حبذا » مبتدأ حيناً وخبراً حيناً، وان « حبذا » فعل برأسه، أو اسم برأسه أو أن « حبّ » فعل، فاعله « ذا » أو أن « ذا » ملغاة، أو أن « حبذا » مبتدأ أو ....

وقد أفضت في ذكر هذه المادة النحوية لأبسط بين يدي القارىء الطريق الناصب الذي سلكه النحاة فلم يأتوا من ذلك بطائل. وكأن النحوي القديم قد نسي أن يكون النحو شيئاً مما درجت عليه العربية في ترسل الكتاب وشعر الشعراء وما كان قد استعمله العرب في سلوكهم اللغوي.

أقول: كأنهم نسوا هذا، وآية ذلك أنهم اوردوا أشياء غريبة لم نجد لها شيئاً مماثلاً في لغة العرب، فهل كان في لغة العرب شيء مثل قول النحاة:

« نعم رجلاً كان زيد »، ومثل هذا كثير في أمثلتهم النحوية التي جمعوا شتاتهامن « زيد » و « عمرو » وما يكمل هذا من لوازم فيها الفعل وغيره.

ولقد عرض لـ « حبّ » في أقوال النحاة ما عرض لـ « ساء » في أنها حُوِّلت من بناء « فَعَلَ » إلى بناء « فَعُلَ » مثل « كَرُمَ » فجاء من ذلك قول الشاعر:

حُبَّ بالزَّور الذي لايُرَى ... منه إلاّ صفحةٌ أو لِمامْ

وهو قول الطِّرمّاح بن حكيم.

والذي أقوله في هذا الشاهد أنه ليس من « حبذا » وهو شيء آخر من كلامهم في أداء معنى المدح.

لقد أجرى النحاة « حُبَّ » هذا على قولهم: « فَهُمَ الرجل زيد » و « خَبُثَ الرجل عمرو ». وليس لي أن أسلِّم بهذا، وأين في كلام العرب، شيء مثل « فهم » و « خَبُث » على نحو ماأجراه النحاة، وإذا كان هذا جاز ان نصنع في نظائر هذين الفعلين مما يفهم منه ضرب من الصفات والخصال والغرائز ونحو ذلك.

أقول: وإذا استقرينا ماورد من استعمال « حبذا » في الأدب القديم نجد من ذلك قول الشاعر القديم:

حبذا الأمر حين قومي جميع لم تبدِّل أمورَها الأهواءُ

وقول ذي الرمة:

ألا حبذا أهل الملاَ، غير أنه إذا ذُكِرت مَيٌّ فلا حبّذا هيا

وقول المرّار بن هماس الطائي:

ألا حبذا لولا الحياءُ، وربّما منحت الهوى مَن ليس بالمتقارب

وقال العرجي:

ياحبذا تلك الحمول وحَبّذا شخص هناك، وحبّذا أمثاله

أقول: ألم يقف النحاة على قول العرجي في مجيء « حبذا » مسبوقة بـ « ياء » لإفادة معنى أبعد ما يكون عن النداء، فهل أفاد النحاة من ذلك في ادراك ان « حبذا » هذه كلمة دَخَلت في أسلوب المدح والاستحسان، فابتعدت عن هذه الأفاعيل في احتساب أمر الفعل والفاعل، وأين المبتدأ وأين الخبر؟!

وقال جرير:

ياحبّذا جَبَل الريّان من جَبَلٍ وحَبّذا ساكنُ الريّان من كانا
وحبّذا نَفَحات من يمانيةٍ تأتيك من قِبَل الريّان أحياناً

وليس ضائري شيئاً أن اختم هذه النماذج بالشاهد الذي ذكر في كتب النحو مما لايعرف له قائل وهو:

ألا حبَّـــذا عـــاذري في الهوى ولا حبّـــذا الجاهـــل العـــاذل

وبعد، فمن المفيد أن أختم هذا الباب فأقول: إن «حبذا» في لغة المعاصرين شيء جديد لعله فرّغ من معنى المدح، فأنت تسمعهم يقولون مثلاً:

«حبذا لو حَصَلَ هذا» و «حبذا أن يكون لنا منهج خاص». وما أشك في أن هذا قد ابتعد عن إرادة الاستعمال القديم، وأنه أقرب إلى معنى «الرجاء» أو طلب الحصول على الشيء.

وقد اشتق المعاصرون من هذه الكلمة القديمة «حبّذا» فعلاً جديداً هو «حبَّذ» مستفيداً التضعيف من «حبّ» في الأصل مضافاً إليه الذال، فكأنه كلمة منحوتة، والمعنى المراد من هذا الفعل الجديد هو التفضيل، فيقال: هم يحبذون هذه الطريقة بمعنى يفضّلونها على غيرها.

وبهذا نختم الكلام على هذا الأسلوب الذي احتفت به لغة التنزيل العزيز.

الدلالة في طائفة
من الأفعال

أريد أن أعرض لطائفة من الأفعال عرض لها النحاة، من حيث ما تصوروا لها من عمل فصنفت تصنيفاً خاصاً، تلكم هي أفعال المقاربة وأفعال الرجاء وأفعال الشروع.

أقول: لقد أحسن النحاة في هذه التسمية، ولو أنهم نظروا إليها من حيث انصرافها إلى هذه المعاني التي تدخل في باب «الأساليب» لتركوا أمرها إلى غيرها، ولكنهم تعلقوا بما توهموه مما كان لها من عمل فصنفت في باب ما يعمل عمل «كان» على نحو خاص.

ولنعرض لشيء مما ذهبوا إليه ثم نعقب ذلك بتعليقنا.

أفعال المقاربة هي ثلاثة: كاد، وأوشك، وكَرَبَ، وأفعال الرجاء ثلاثة هي: عسى، وحرى، واخلولق.

وأفعال الشروع كثيرة، ومنها أنشأ، وطفق، وجعل، وعَلِق، وأخذ.... وقالوا: تعمل هذه الأفعال عمل «كان» إلا أن خبرهن يجب كونه جملة، وشذَّ مجيئه مفردا بعد «كاد» و «عسى» كقول تأبط شرّاً:

فأبتُ إلى فَهْمٍ وماكدت آئباً   وكم مثلها فارقتُها وهي تصفِرُ

وكما جاء في «المثل»:

عَسَى الغُوَيْر أبؤساً

وجاء في قوله تعالى: «فطَفِقَ مسحاً» (٣٣ سورة ص)

وقالوا فيها: التقدير: يمسح مسحاً.

وشرط الجملة أن تكون فعلية، وشذّ مجيء الاسمية بعد «جعل» في قول القائل:

وقد جعلَتْ قلوصُ بني سُهَيْلٍ　　من الأكوار مرتعُها قريبُ

وشرط الفعل ثلاثة أمور، أحدها: أن يكون رافعاً لضمير الاسم، فأما قول ابن أحمر:

وقد جعلت إذا ماقمت يُثقلني　　ثوبي فأنهضُ نَهضَ الشارب السَّكِرِ

ومثله قول ذي الرمة:

وأسقيه حتى كاد مما أبثّه　　تكلّمني أحجارُهُ وملاعبُهْ

فجعلوا كلمتي «ثوبي» و «أحجاره» بدلين من اسمي «جعل» و «كاد». ويجوز في «عسى» خاصة أن ترفع السببي كقول الشاعر:

وماذا عسى الحجاج يبلغ جُهدَه　　إذا نحن جاوزنا حفير زياد

وجاء خبر «عسى» غير مقترن بـ «أن». ويروى «جُهده» بالرفع والنصب.

والثاني: أن يكون الفعل مضارعاً، وشذَّ في «جعل» قول ابن عباس - رضي الله عنها:

«فجَعَلَ الرجل إذا لم يستطعْ أن يخرجَ أرسَلَ رسولاً».

الثالث: أن يكون مقروناً بـ «أن» إن كان الفعل «حَرَى» أو «اخلَوْلَقَ» نحو: حَرَى زيد أن يأتي، واخلَوْلَقَت السماء أن تُمطِرَ.

وان يكون مجرّداً منها إن كان الفعل دالاً على الشروع نحو: «وطفقا يخصِفان عليهما من وَرَق الجنّة» (٢٢ سورة الأعراف).

والغالب في «أوشك» الاقتران بها نحو: «عَسَى ربُّكم أن يرحَمَكم» (٨ سورة الإسراء).

وكقول الشاعر:

ولو سُئِل الناسُ الترابَ لأوشكـوا　　إذا قيل هاتوا أن يَمَلّـوا ويمنعـوا

وكقول جرير:

إذا جَهِـلَ الشقـــيُّ ولم يُقـــدِّرْ　　ببعض الأمـر أوشـك أن يُصـابـا

وكقول الكَلْحَبَة اليربوعي:

إذا المرء لم يغشَ الكريهةَ أوشكَـتْ　　حِبالُ الهُوَيْنى بـالفَتـى أن تَقَطّعـا

والتجرّد قليل كقول هُدبة بن خَشْرَم:

عسى الكـرب الذي أمسيـتَ فيـه　　يكـــون وراءه فَـرَجٌ قـريـــبُ

وكقول أميّة بن أبي الصلت:

يُـوشِـك مــن فَـرَّ مـــن منيّتـــه　　في بعـض غِـرّاتـه يُـوافقهـا

و «كاد» و «كَرَبَ» بالعكس فمن الغالب قوله تعالى: «وما كادوا يفعلون» (٧١ سورة البقرة).

وقول الشاعر:

كَرَبَ القلـبُ مـن جَـواه يـذوبُ　　حين قـال الوشـاة هنـد غضـوبُ

ومن القليل قول الشاعر:

كـادت النفس أن تفيـضَ عليـه　　إذ غَـدا حَشْـوَ رَيْطـةٍ وبُـرودِ

وقول الشاعر:

سقاها ذوو الأحلام سَجْلاً على الظّما　　وقد كَرَبَـتْ أعنـاقُهـا أن تَقَطّعـا

ولم يذكر سيبويه في خبر «كَرَبَ» إلاّ التجرّد من أن».

وهذه الأفعال ملازمة لصيغة الماضي إلاّ أربعةً استعمل لها مضارع هي «كاد» نحو قوله تعالى: «يكاد زَيتُها يضيء» (٣٥ سورة النور).

وكذلك «أوشك» وقد مرّ الشاهد في «يوشك»، وكذلك قالوا «يطفَقُ» و «يجعَل». وجاءوا بشواهد نادرة في مجيء اسم الفاعل من «كاد» و «كَرَب» و «أوشك» وهي في أبيات نادرة.

التعليق:

أقول: ضم النحاة هذه الأفعال بعضها إلى بعض وجعلوها باباً واحداً، وهي تختلف في دلالاتها فمنها ماأفاد القرب، ومنها ماأفاد الرجاء، ومنها ماأفاد الشروع. ولم يفعلوا مافعلوه إلا بسبب أنهم تصوروا أنها تعمل عملاً نحوياً واحداً كسائر الأفعال الأخرى التي سُمِّيت «النواسخ» مثل «كان» وغيرها.

ولو أنهم نظروا إلى دلالاتها لكانت أفعالاً أخرى لها مواضع غير هذا الذي أدرجوها فيه.

أقول: إذا كانت «كاد» و «أوشَكَ» دالّتين على «المقاربة» فلابد أن يوقف على «كَرَبَ» وقفة خاصة فيقال إنها صورة قديمة للفعل «قَرُبَ»، وبسبب من قدمها جمدت على هذه الصورة من لزوم الكاف ومجيئها على «فَعَلَ» مثل «كَتَبَ».

ألا ترى أن الفعل «قَرُبَ» يصح أن يأتي في استعماله على مثال هذه الأفعال نحو قولنا مثلاً: «قرب أن يحلَّ موعد العيد».

فهل لنا أن نقول ان «قَرُبَ» هذا من أفعال المقاربة، ولِمَ لا نقول؟.

وإذا تم لنا هذا فكيف نصير إلى ماصار إليه النحاة من أن هذه الأفعال جميعها من النواسخ والمرفوع بعدها اسمها، وخبرها الجملة الفعلية ذات الفعل المضارع المقترن بـ «أن» أو المجرد منها؟

فإذا قلنا: كاد المطر يهطل، وأوشكت الشمس أن تغيب، وعَسَى أن يحلَّ الفَرَج فمن الممكن أن نغيّر التركيب قليلاً فنقول:

كاد يهطل المطر، وأوشكت أن تغيب الشمس، وعسى الفَرَجُ أن يحل، وكذلك نقول: شرع يلعب الطفل، وأخذ يكتب الولد، وهكذا في سائر هذه الأفعال.

وعندي أن هذه الجمل هي نفسها الأولى، ولكننا صرنا إليها، وفي العربية

يتسع مجال القول، وفي هذا فائدة للمتكلم والكاتب والشاعر والخطيب، والتقديم والتأخير قد يكون رخصة يجد فيها هؤلاء جميعاً فائدة، وقد تخدم الأغراض البلاغية.

وإذا كانت هذه الجمل على هذين الأسلوبين أفلا يحق لنا أن نبعد هذه الأفعال من باب «النواسخ» ونجعلها كسائر الأفعال وليس من اسم وخبر.

أقول: لقد أدرك النحاة هذا، ولكنهم لم يفيدوا منه انسجاماً مع قواعدهم التي أقروها وتخيلهم للاسم والخبر، فماذا قالوا في الأوجه الأخيرة التي قُدِّم فيها الفعل الذي حسبوه فعل الجملة الفعلية التي هي خبر هذه الأفعال؟

لقد تمسّك النحويون بمقولتهم وان الأفعال هي هي في عملها، وانها تابعة للنواسخ، فكيف يفسرون هذا؟

قالوا: لوقلنا: أوشك أن يقوم زيد، لكان في «أوشك» ضمير هو الإسم يعود على زيد، والجملة الفعلية على «خبريتها».

ولم يقبل هذا نفر من النحويين القدماء بل ذهبوا إلى أن الفعل بعد أوشك يجوز أن يقدَّر خالياً من الضمير، فيكون مسنداً إلى ذلك الاسم، «أوشك» مسندة إلى «أن والفعل» مستَغنىً بهما عن الخبر.

وقالوا:

ويظهر أثر الاحتمالين أيضاً في التأنيث والتثنية والجمع، فتقول على وجه الإضمار: عسى أن يقوما أخواك، وعسى أن يقوموا اخوتك، وعسى أن يقمنَ نِسوتك، وعسى أن تطلع الشمس لاغير.

وعلى الوجه الآخر توحِّد «يقوم» وتؤنّث «تطلع» أو تذكِّره.

أقول: وهذه التقديرات ليست بشيء إذا ماقوبلت بما قلناه على وجه اليُسر والخفة باحتساب هذه الأفعال كغيرها من أفعال العربية، وأما قولهم: عَسَى أن يقوما أخواك ومابعدها فالألف في «يقوما» والواو في «يقوموا» وكذلك

الباقي إشارات تدل على أن الفاعل مثنىً أو جمعاً أو....

ولنعد إلى شيء آخر من « التعليق » فنقول:

لم تكن هذه الأفعال أفعالاً خاصة، وليست هي من النواسخ ومجيء الفعل بعدها ليس من جملة فعلية هي الخبر.

وإنك تستطيع أن تجد نظائر هذه الأفعال في العربية التي يأتي بعدها الفعل، أو قل الاسم يتلوه فعل كقولنا: انطلق علي يلعب، وأراد الولد أن يلعب، وقام زيد يكتب، وراح خالد يتلو قصته، ومثل هذا كثير لاحصر له، ولو أخذنا برأي النحويين لكانت عدة هذه الأفعال التي تفيد « الشروع » كثيرة قد تبلغ العشرات إن لم تكن أكثر من ذلك.

ولو أن النحاة انتبهوا إلى مافي كتاب الله في قوله تعالى:

« فوجدا فيها جداراً يريد أن يتقض » (٧٧ سورة الكهف).

أقول: لو أنهم فطنوا إلى استعمال الفعل « يريد » في هذه الآية لكان عليهم أن يلحقوه بأفعال المقاربة فهو نظير « أوشك » و « كاد ».

وفعل « الإرادة » هذا يعني أفعال المقاربة التي ذكرها النحاة.

وهذا الاستعمال لفعل الإرادة من المألوف في العربية المعاصرة وأكثر منه في العربية العامية فأنت تسمع العامة في بلادٍ عدة من أرض العرب يقولون: « الحائط يريد يقع » بمعنى يريد أن يقع.

وقد قلت أن « كَرَبَ » الفعل القديم الذي لانعرف إلا هذا الماضي منه[1]، والذي نكاد لانجده في غير كتب النحو هو الصورة القديمة للفعل « قَرُبَ »، وهذا الفعل الأخير لاتعدم أن تراه مستعملاً على مارسم النحاة نحو قولنا مثلاً: « قَرُبَ الامتحان أن يبدأ ».

---

(١) جاء في شواهد النحو القديم قول عبدقيس بن خفاف البرجي:

أبنيَّ أن أبـــاك كـــارب يـــومـــه ... فـــإذ دعيـــت إلى المكـــارم فـــاعجّـــل

أقول: لم نعرف لهذا الفعل إلاّ اسم الفاعل هذا في هذا البيت، ولم نجد شيئاً غيره. وقد أشرت إلى أن هذا الفعل من القديم المهجور في العربية الذي انقطعت أصول رحمه.

قلت لم يلتفت النحاة إلى شيء من هذا كله، وفات بذلك علم مفيد.

وقلت أيضاً: ان هذه الأفعال مختلفة، ولو أنهم أدركوا دلالتها لحملوا «عَسَى» على كل مايفيد الرجاء نحو «لعَلّ» وليس من ضير أن يلحق بهما «ليت» التي تفيد التمني.

وإذا استشعر النحاة الأوائل أن «عَسَى» فعل، فلنا إفادة بما ذهب إليه جمهرة الكوفيين وثعلب، وابن السراج من البصريين وغيرهم من أن «عسى» حرف، وهي نظير «لعل» في المعنى.

أقول: لولا تمسك النحويين الأوائل بالاعراب وأنه أثر العامل المتقدم، لم تحمل هذه الطائفة من المواد على «النواسخ» من الأفعال، ففسد بذلك العلم المفيد.

قلت غير مرة: إن الاستقراء غير وافٍ فلم يستوفوا مافي العربية القرآنية من فوائد سنية، وأكثر من ذلك أنهم تشبثوا بمواد لم نجدها إلا في كتب النحو، وعزَّ عليهم أن يجدوا لها شواهد أصيلة من كلام العرب أو أشعارهم فجاءت أمثلتهم:

حَرَى زيد أن يأتي، واخلَولَقَت السماء أن تمطر....

ولم أقع في قراءاتي الكثيرة على شيء من «حَرَى» واخلولق» اللذين علقا في ذهني منذ أيام الطلب.

ولم يأتني شيء من استعمال «عَلِقَ» بمعنى «شَرَع» والذي نعرفه من هذه المادة هو «عَلَق» بناء «كَتَب» التي لاتفيد الشروع أبداً ومعناه معروف فتقول:

علق ذهني من هذا الأمر كذا وكذا....

والكثير من الفعل «جَعَلَ» يفيد الصيرورة في الجاري من الاستعمال، وليس من «جَعَلَ» التي تفيد الشروع.

ومن المفيد أن أشير إلى أن المشهور من هذه الأفعال المفيدة للشروع قد اشتهرت باستعمال ينأى عن هذا الذي اقتصر عليه النحاة.

قد نسمع على سبيل الندرة قول من يقول: شرعت الوزارة أن تنفّذ خطّتها، ولكننا نسمع كثيراً انهم يقولون: شرعت الوزارة في تنفيذ الخطة.

وكما يقال: انطلق الولد يؤدّي عمله، يقال انطلق الولد في أداء عمله. أقول: كأن النحاة انصرفوا عن هذه الوجوه البعيدة عما قيدوا به استعمالها في كتبهم، وذلك بسبب أن هذا الذي نشير إليه لايدخل هذه الأفعال في حيِّز النواسخ، وإذا بطل عملها فليس من همهم أن يقفوا على مالا يخدم ظاهرةً نحوية تعلقوا بها. وقد أشرت إلى أن النحاة لم يأبهوا لمعاني هذه المواد وكيف جاءت في العربية وشغلوا أنفسهم بمسألة ما تقتضيه من الاسم والخبر. وقد قلت ان «عسى» يفيد الرجاء وأنها مثل «لعل» في هذا المعنى، وكان أفيد لو أن النحاة جمعوا بينهما وضموا إليها «ليت» في افادة التمني ولم يكترثوا باختلاف عمل كل من هذه الأشتات.

ولا أريد في هذا أن أقوّي مقالة الكوفيين في أن «عسى» حرف، وليس شيء من ذلك يدخل فيما يشغلني من منهج وعندي ان الرجاء والتمني من المعاني التي يؤديها الفعل أو المصدر وكلاهما مادة واحدة.

وجاء في قراءة نافع ـ رحمه الله ـ: «هل عَسِيتُم إنْ كُتِبَ» (٢٤ سورة البقرة)، «فهل عَسِيتُم إنْ توَلَّيتُم» (٢٢ سورة محمد).

وكلاهما بكسر السين. وقال النحويون من غير أن يلتفتوا إلى القراءات الخاصة «ان السين من «عَسَى» تكسر عند إسناد «عسى» إلى التاء أو النون أو نا، وخالف في ذلك أبو عبيدة.

ومن استعمال النحويين في أمثلتهم أن هذه الأفعال قد يتقدم عليها الاسم الذي هو المسند إليه في المعنى وتأخر عنها «أن والفعل» نحو: «زيد عسى أن يقوم» جاز تقديرها خالية من ضمير ذلك الاسم، فتكون مسندة إلى

« أن والفعل » مستغنىً بهما عن الخبر .

وجاز تقديرها مسندة إلى الضمير ، وتكون « أن والفعل » في موضع نصب على الخبر . ويظهر أثر التقديرين في التأنيث والتثنية والجمع فتقول على تقدير الإضمار: « هندٌ عَسَت ان تُفلح » و « الزيدان عَسَيا أن يقوما » و « الزيدون عَسَوا أن يقوموا » و « الهندات عَسَيْنَ أن يقمن » .

وتقول على تقدير الخلوّ من الضمير « عَسَى » في الجميع وهو الأفصح .

أقول: لاأدري كيف اهتدوا ـ عفا الله عنهم إلى الأفصح!! أما كان لهم أن يفيدوا الفائدة المقنعة من الأسلوب الجميل الفصيح في قوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قومٍ عَسَى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساءٌ من نساء عَسَى أن يكنَّ خيراً منهنَّ » (١١ سورة الحجرات) .

اللهم إني أبرأ إليك أن آخذ بماقال النحاة قبل ان يتضح لي نهج سوي أسلكه وأفيده من كتابك .

ما يُسمّى
«أسماء الأفعال»

لقد وقف النحاة على جملة مواد قديمة في العربية أسموها «أسماء الأفعال» كما وقف عليها أهل اللغة، وكان لكلا الفريقين سعة في القول. وسأعرض لما قال النحاة ثم أتبعه بما ذكر أهل اللغة ثم أعود فاعلق على أقوال كلا الفريقين بما بدا لي من النظر في أساليب هذه اللغة الشريفة، وبما أعانني عليه الدرس القرآني.

ذكر النحاة:

ان اسم الفعل ماناب عن الفعل معنىً واستعمالاً نحو «شتّان» و «صَهْ» و «أوَّه». والمراد بالاستعمال كونه عاملاً غير معمول فخرجت المصادر الصفات في نحو: «ضَرباً زيداً» و «أقائم الزيدان» فان العوامل تدخل عليها.

ووروده بمعنى الأمر كثر نحو «صَهْ» و «مَهْ» و «آمين» بمعنى اسكت وانكفف واستجب و «نَزالِ» وبابه.

وبمعنى الماضي والمضارع قليل نحو «شتّانَ» و «هَيْهاتَ» بمعنى افترَقَ «بَعُدَ» و «أوَّه» و «أُفٍّ» بمعنى أتوجّع وأتضجّر. و «وا» و «وَيْ» و «واهاً» بمعنى أعجَبُ، كقوله تعالى:

«وَيْ كأنّه لايفلح الكافرون» ٨٢ سورة القصص، أي: أعجَبُ لعدم فلاح الكافرين.

وقول الراجز:

وا بأبي أنتِ وفوكِ الأشنبُ   كأنّما ذُرَّ عليه الزَّرْنَبُ

وقول الآخر:

واهاً لسَلْمَى ثم واهاً واها

وزاد النحاة فقالوا:

واسم الفعل ضربان أحدهما: ماوضع من أوّل الأمر كذلك كشتّان وصَهْ و وَيْ. والثاني: مانُقل من غيره إليه، وهو نوعان: منقول من ظرف أو جار ومجرور نحو: «عليك» بمعنى الزم، ومنه: «عليكم أنفسكم» من الآية ١٠٥ من سورة المائدة، أي الزموا شأن أنفسكم، و «دونك زيداً» بمعنى خُذه، و «مكانَك» بمعنى اثبُتْ، و «أمامَكَ» بمعنى تقدَّم، و «وراءَك» بمعنى تأخَّرْ، و «إليك» بمعنى تَنَحَّ. ومنقول من مصدر وهو نوعان: مصدر استُعمل فعله، ومصدره أهمِلَ فعله، فالأوّل نحو: «رَويدَ زيداً» فانهم قالوا: أروَدَه إرواداً، والمعنى أمهِلْه إمهالاً، ثم صغّروا الإرواد تصغير الترخيم وأقاموا مُقام فعله، واستعملوه تارة مضافاً إلى مفعوله، فقالوا: «رُوَيدَ زيدٍ» وتارةً منوّناً ناصباً للمفعول فقالوا: «رُوَيداً زيداً»، ثم إنهم نقلوه وسمّوا به فعله فقالوا: «رُوَيدَ زيداً» كقول الشاعر:

رُوَيدَ عليّاً جُدَّ ماثَدْيُ أمِّهم إلينا، ولكن بعضُهم مُتيامِنُ

والدليل على أن هذا اسم فعل كونه مبنياً، والدليل على بنائه كونه غير منوّن والثاني قولهم: «بَلْهَ زيداً» وكقول كعب بن مالك:

تَذَر الجماجمَ ضاحياً هاماتُها بَلْهَ الأكُفِّ كأنها لم تُخْلَقِ

وكقول إبراهيم بن هرمة:

تمشي القَطوفُ إذا غَنّى الحداة بها مشيَ النجيبة بَلْهَ الجِلَّةِ النُّجَبا

وهو في الأصل مصدر فعل مهمل مرادف ل«دعْ» أو «اترُكْ». ويقال: «بَلْهَ زيدٍ»، بالإضافة إلى المفعول كما يقال: «تَرْكَ زيدٍ» ثم قيل: «بَلْهَ زيداً» بنصب المفعول وبناء «بَلْهَ» على أنه اسم فعل.

ثم عرض النحاة إلى «عمل» اسم الفعل وذهبوا فيه أنه عمل الفعل فتقول:

هَيْهاتَ نجدٌ أي بَعُدَت نجدٌ كقول جرير:

فهيهات هيهـات العقيـق ومـن بـه ... وهيهات خِلٌّ بـالعقيـق نُـواصِلُـهْ

ويُروى « أيْهات » على البدل.

وتقول: شتّان زيدٌ وعمرو كما نقول: افترَقَ زيدٌ وعمرو......

وبعد فهذه بسطة موجزة عما ذكر النحاة البصريون في مادة ماأسموه « اسم الفعل » وهو عندهم اسم استعمل استعمال الفعل وذلك في « العمل ».

ولعل من الخير أن نتبين أقوال الكوفيين في هذه المواد لنخلص من مجموع كلام الفريقين إلى شيء نطمئن إليه.

أقول: إن مصادر النحو الكوفي الأصيلة قليلة، وإننا نقف كثيراً على أقوالهم وآرائهم في كتب النحاة المتأخرين وأن هذه الكتب المتأخرة تنسب إليهم اشتاتاً من آراء مختلفة وقد تكون متاقضة أحياناً، وعلى هذا فليس من العلم أن نأخذ هذه المواد ونقطع بها على أنها من أقوالهم، ولنحاول أن نقف على علم هؤلاء ماأستطعنا في المصادر الأولى.

ومن هذه الآراء ان هذه المواد:

« أفعال » كسائر الأفعال وإن جاءت على أبنيةٍ خاصة قديمة، وهؤلاء الذين يرون هذا الرأي كما جاء في كتب المتأخرين(١) يستدلون بأن جملة هذه المواد تدل على الحدث والزمان، وهي من أجل ذلك أفعال حقها أن تستعمل استعمال الأفعال لا استعمال الأسماء، وإن كانت تتصف بشيء من خصائص الأسماء كالتنوين والتنكير مثلاً.

وأنها « أصوات » عند الفراء في كلامه على قوله تعالى « ولا تقل لهما أُفٍّ » ٢٣ سورة الإسراء. فكلمة « أُفّ » نظير « صَهْ » وهي أصوات.

وقد قرأ عاصم والأعمش « أُفِّ » خفضاً بغير تنوين، وقرأ العوام « أُفٍّ »

(٢) انظر همع الهوامع ٢/١٠٥، شرح الأشموني مع الصبان ٣/١٩٥.

فالذين خفضوا ونوّنوا ذهبوا إلى أنها لايعرف معناها إلا بالنطق بها فخفضوا كما تُخفَض الأصوات. ومن ذلك قول العرب: سمعت طاقٍ طاقٍ لصوت الضرب، ويقولون: سمعت تَغٍ تَغٍ لصوت الضحك. والذين لم ينوّنوا وخفضوا قالوا: «أفٍّ» على ثلاثة أحرف، وأكثر الأصوات انما يكون على حرفين مثل: صَهْ،ومثل: تَغْ ومَهْ[٣].

على أن الفراء يذهب في شيء من هذه المواد التي دعاها البصريون «أسماء أفعال» إلى أنها أسماء وذلك حين يعرض لقوله تعالى:

«يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم» ١٠٥ سورة المائدة.

فيقول[٤]: هذا أمر من الله - عزّ وجلّ - كقولك: عليكم أنفسكم، والعرب تأمر من الصفات[٥] بـ «عليكَ ودونكَ وإليكَ»، يقولون: إليكَ إليكَ، يريدون: تأخّرْ، كما تقول: «وراءَك»، فهذه الحروف كثيرة. وزعم الكسائي أنّه سَمِعَ: بينكما البعير فخذاه. فأجاز ذلك في كل الصفات التي قد تفرّد، ولم يُجزه في اللام ولا في الباء ولا في الكاف. وسمع بعض العرب تقول: «كما أنت وزيداً» و مكانَكَ زيداً.

قال الفراء: وسمعت بعض بني سليم يقول في كلامه: كما أَنْتِني، ومكانَكِني، يريد انتظِري في مكانكِ.

ولا تُقدِّمَنَّ ما نَصَبته هذه الحروف قبلها، لأنها أسماء، والاسم لاينصب شيئاً قبله، تقول: ضرباً زيداً، ولاتقول: زيداً ضرباً، فإن قلته نصبته بفعل مضمر قبله، كذلك قول الشاعر:

يا أيها المائح دلوي دونَكا[٦]

---

(٣) معاني القرآن ٢/١٢١ وانظر لسان العرب ٩/٧.

(٤) معاني القرآن ١/٣٢٢-٣٢٣.

(٥) أراد بـ «الصفات» الظرف والجار والمجرور، وهذا من مصطلح الفراء ولا استطيع أن أقول: انه من المصطلح الكوفي.

(٦) هذا هو رأي البصريين والشاهد في كتبهم ومنها «الكتاب» ورأي الفراء في تقديم الدلو منصوباً بمضمر هو رأي البصريين في تأويلهم في هذه المسألة.

إن شئت نصبتَ « الدلو » بمضمر قبله، وإنْ شئت جعلتها رفعاً، تريد: هذه دلوي فدونكَها . وقال الفرّاء أيضاً:

ان « هَيْهاتَ » و « هَلُمَّ » أداتان ليستا مأخوذتين من فعل في كلامه على قوله تعالى: « هَيْهاتَ لِما توعَدون » ٣٦ سورة « المؤمنون ».

ومعنى « هيهات » بعيد، كأنه قال: بعيد « ما توعدون ».

ومن أدخل اللام قال: هيهات اداة ليست بمأخوذة من فعل بمنزلة بعيد وقريب فأدخلت لها اللام كما يقال: هَلُمَّ لك، إذ لم تكن مأخوذة من فعل(٧).

وقد استعمل الفراء مصطلح « الخلفة » في الكلام على « دونك » في قول الراجز:

يـــاأيها المائـــح دلـــوي دونَكـــا إني رأيــت النــاسَ يحمـــدونكـــا

قال: الدلو رفع كقولك: زيدٌ فاضربوه، والعرب تقول: الليلُ فبادروا، والليلَ فبادروا. وتنصب « الدلو » بمضمر في الخلفة كأنك قلت: دونَك دلوي دونَك »(٨).

وقد أفاد بعض نحاة الأندلس من كلمة « الخلفة » التي جاءت في كلام الفراء وجعل منها « الخالفة » وسمّى بها « أسماء الافعال »(٩).

أقول: هذا هو ما أنجزه النحاة في درسهم القديم وما انتهوا إليه، ولكني أشعر أن جملة هذه المواد محتاجة إلى شيء من نظر جديد، ذلك أنها لايمكن أن تكون هذه الأشتات شيئاً واحداً. وقد تقول: لِمَ أدرجت هذه المواد في باب واحد من أسماء الأفعال؟ والجواب عن هذا أن النحاة الأوائل شغلتهم قضية « العمل » وأن هذه المواد جرت في العربية في حيز جملة مفيدة فوقفوا على مايليها من مرفوع ومنصوب فكان هم في ذلك أقوال كنا قد أشرنا إليها.

---

(٧) معاني القرآن ٢/٢٣٥.
(٨) المصدر السابق ١/٢٦٠.
(٩) انظر شرح اللمحة البدرية ٢/٨٠، والهمع ١/٤، ٢/١٠٥ وبغية الوعاة ١/٣١١.

ووجه القول فيها: إنها مواد قديمة دخلت في استعمال العربية القديمة فهي تارة من قبيل الجملة الفعلية وتارة شيء آخر.

ومن المفيد أن نعرض لها مرتبة على حروف المعجم:

١ ـ أفٍّ:

وقالوا: أفيَّ وأفّة[١٠]، والذي أراه أنها كلمة تحكي التضجّر، فكأن المتضجِّر ينطلق بصوت الفاء معتمداً على الهمزة افصاحاً عن حال من التضجّر، ثم ضُعِّفت الفاء لتكون كسائر المواد الثلاثية. وقد غَلَّب عليها الاستعمال الكسر مع التنوين فجرت في العربية في حيز الجمل فقيل مثلاً: «أفٍّ لكم» للإعراب عن حال من التضجّر من المخاطبين، ففسّرها النحاة على أنها تعدل الفعل «أتضجّر» فذهبوا إلى أنها اسم فعل مضارع، فهي فعل بمعناها واسم بما يلحقها من خصائص الأسماء.

أقول: وليس هذا التفسير بقويم ذلك بأن قولنا: «أفٍّ لكم» إعراب عن تضجّر، وليس كأنها جملة فعلية. وهي في هيئتها شيء من الجمل الإنشائية كالدعاء ونحوه، وليس بمعنى «أتضجّر منكم»، لأن هذه جملة خبرية، وفرق بين هذين الضربين من الجمل.

ولشيوع كلمة «أفّ» في الإعراب عن الحال المذكورة أخذت العربية منها الفعل «تأفّفَ» بمعنى أظهر التأفُّف أي التضجّر.

وهذا الضرب من الكلم يعرض لعامّة اللغات، ألا ترى أن العوام ينطلقون بكلمة «أفْ» أو «أوف» للإعراب عن التضجّر والقلق؟

وقد وردت الكلمة في لغة التنزيل بهذا الخصوص، قال تعالى:

«فلا تقُلْ لهما أُفٍّ ولا تَنْهَرْهما وقلْ لهما قولاً كريما» (٢٣ سورة الإسراء).

«أُفٍّ لكم ولِما تعبُدون من دون الله أفلا تعقِلون» (٦٧ سورة الأنبياء).

«والذي قال لوالدَيْه أُفٍّ لكُما أتَعِدانِني أن أخرج» (١٧ سورة الأحقاف).

---

(١٠) انظر اللسان (افف).

وقد يكون لي أن أقول: «أف» صوت للإعراب عن التضجّر استعمل في العربية على نحو خاص فكان منه ضرب من الكلم.

وللأصوات مكان في العربية كسائر اللغات الأخرى، ولهذه الأصوات كلمات سميت «أسماء الأصوات» تحكي مايحصل من مواد معينة من هذه، وقد تكون هذه الكلمات زجراً للحيوان والطير كما تكون حكاية لما يحدث من أصوات في البيئة نحو قولهم في دعاء الاِبِل لتشرب «جِيء جِيء» مهموزين.

وقد أخذوا من ذلك فعلاً فقالوا: جَأجَأت بالإبل إذا دعوها لتشرب، ثم لما كثر ذلك سمّوا الشراب «جيئاً» كما سمّوا البغل «عَدَس»، قال الراجز:

وما كانَ على الهِيْءِ ولا الجِيْءِ امتداحيكا[11]

يريد لم يكن على الطعام ولا الشراب مدحي إيّاك.

وقالوا في دعاء الضأن «حاحا»، كما قالوا ذلك للإبل.

قال الجوهري في الصحاح: و «حاءِ» زجر اللإبل بُني على الكسر لالتقاء الساكنين، وقد يُقصر، فإن اردت التنكير نوّنتَ فقلتَ: حاء وعاء[12].

وقال أبو زيد: يقال للمعز خاصة: حاحَيْتُ بها حَيْحاءً وحَيْحاءة إذا دعوتها. وقالوا في زجر المعز: «عاعا» غير مهموزين، والفعل: حاحَيْتُ وعاعَيْت، والمصدر حَيْحاء وعَيْعاء، قال الراجز:

ياعنزُ هذا شجر وماءُ عاعَيْتُ لو ينفعُني العَيْعاءُ

وقالوا في زجر البغل: «عَدَس» كقول يزيد بن مفرّغ الحميري:

عَدَسْ مالعبّاد عليكِ إمارةٌ أمِنْتِ وهذا تحملينَ طليقُ

(١١) اللسان (جيأ).
(١٢) اللسان (حاء).

ومما يُحكى به الصوت نحو «غاقْ» لحكاية صوت الغراب، و«طاقْ» لصوت الضرب، و«طَقْ» لصوت وقع الحجارة، و «قَبْ» لصوت وَقع السيف.

٢ ـ آمين:

هي كلمة تقال في إثر الدعاء.

وقال الفارسي: هي جملة مركبة من فعل واسم معناه: اللّهم استجب لي، قال: ودليل ذلك أنّ موسى لمّا دعا على فرعون وأتباعه فقال: ربّنا اطمس على أمواهم وأشدُد على قلوبهم، قال هارون: آمين، فطبّق الجملة بالجملة.

أقول: وكلام الفارسي ليس بشيء وإنما القول ماقيل إنها تقال في إثر الدعاء. ومن اجل ذلك قالوا: أمّن الإمام تأميناً، إذا قال بعد الفراغ من «أمّ الكتاب»: آمين، أي اللهم استجب.

أقول: وبسبب هذا التفسير ذهب النحاة إلى انها اسم فعل بمعنى «استجب»، وكأنهم نسوا أنها لاتقال إلا بعد الدعاء، وإلا بعد «أمّ الكتاب» وهي سورة الفاتحة في الصلاة. وليست هذه الكلمة في العربية وحدها فقد عرف الساميون كالعبرانيين والآراميين هذه الكلمة للدعاء أيضاً. ولعلّ من إتساع العربية انها جاء منها فعل.

٣ ـ آه، أوه، أوّه، أوّاه، إيه:

أقول: إن جملة هذه المواد مادة واحدة: وهي في جملتها حكاية توجع يطلقها المتوجِّع المتألّم. ولكن النحاة أخذوا من جملة هذا «أوّه» فاستعملوها على رأيهم على أنها اسم فعل بمعنى أتوجّع.

وجملة هذه الكلمات التي تعني حكاية للتوجع والألم أفادت العربية فكان منها جملة مواد، قال المثقِّب العبدي:

إذا ماقمتُ أرحلُها بليلٍ تأوَّهُ آهة الرجل الحزينِ

فأنت ترى ان «آه» و «أوه» قد صارت فعلاً مضاعفاً هو «تأوّه» وأن

هذا الصوت المفيد للتوجع «آه» تحول إلى اسم مؤنث «آهة» نظير «حَسرة» فجمع على «آهٍ» اسم جمع، وجمع مؤنث على «آهات».

وأنشد الفراء:

فأوهِ لذكراها إذا ماذكرتُها ومن بُعد أرض بيننا وسماءِ

وقال ابن الأثير: «أوهِ» كلمة الرجل عند الشكاية والتوجع ساكنة الواو مكسورة الهاء. وقال بعضهم: بفتح الواو مع التشديد «أوَّه».

أقول: وهذه الأخيرة هي التي زعم النحاة أنها اسم فعل، ولم أستطع تحقيق ذلك في كلام قديم. وجاء في التنزيل العزيز: «إنّ إبراهيم لحليمٌ أوّاه مُنيب» (٧٥ سورة هود).

«ان ابراهيم لأوّاه حليم» (١١٤ سورة التوبة).

أي المُتأوِّه شفقاً وفَرَقاً، وقيل: المتضرِّع، وقيل: الدعّاء.

وقالوا في «إيه»: إنها كلمة استزادة واستنطاق، وهي مبنية على الكسر. قال ابن السكّيت: فإنْ وُصِلَت نُوِّنَت، تقول للرجل إذا استزدته من حديث أو علم: إيهٍ حدِّثنا، وإذا قلت: إيهاً، بالنصب، فإنّما تأمر بالسكوت.

وفي الحديث أنّه - ﷺ - أُنشد شعر أمية بن أبي الصلت، فقال عند كل بيت: إيه.

وقال الخليل: هِيهْ وهِيَه، بالكسر والفتح، في موضع إيه وإيَهْ.

وقال ثعلب: إيه بمعنى حدِّث، قال ذو الرمة:

وقَفْنا فقلنا: إيه عن أمِّ سالمٍ وما بالُ تكليم الديار البلاقِعِ

أراد: حدِّثنا عن أُمِّ سالم، فترك التنوين في الوصل.

وقال الأزهري: لم ينوِّن ذو الرمة فوصل ونوى الوقف.

وقال: فإذا أسكَتّه وكفَفتَه قلت: إيهاً عنا، فإذا أغريته بالشيء، قلتَ: وَيْهاً يافلان، فإذا تعجَبتَ من طيب شيءٍ قلتَ: واهاً ما أطيبه.

وقال الخليل: إيه وإيَهْ في الاستزادة والاستنطاق، وإيهٍ وإيهاً في الزجر.

وقال ابن سيده: إيه كلمة زجر بمعنى حسبك وتُنوَّن فيقال: إيهاً، وكقولك: إيه حسبُكَ وإيهاً حسبك.

وقال ابن الأثير: وقد ترد المنصوبة بمعنى التصديق والرضا بالشيء.

والتأييه الصوت، وقيل دعاء الإبلِ.

وأنت ترى من جملة هذه الأقوال ان هذه الكلمة التي بدأت صوتاً يعرب عن ألم وتوجع قد تحول إلى استزادة وزجر واستنطاق وكفاية، ثم كان صوتاً خاصاً لدعاء الإبل. وهذا سبيل العربية القديمة في الإفادة من «الأصوات» الأولى البشرية ثم تحويلها إلى معانٍ جديدة.

وحقيقة هذه المواد أنها أصوات قديمة اهتدى إليها المعرب القديم في أن تكون ترجمةً لضروب من الإحساس كالألم والتوجع والتحزّن والتعجب والاندهاش فقال: آه، ألا ترى أن نظير هذا قد تلقاه في لغات أخرى ليست سامية بعيدة كل البعد عن العربية؟

ومن المفيد أن الصوت الذي يطلقه العراقيون للاعراب عن الألم والتوجع هو «آخ»، ولنا وقفة على هذا لنقول: إن الهاء والخاء صوتان حلقيان وكلاهما مما يهتدي إليه الناطق في العربية للإعراب عن إحساس خاص بالألم أو غيره.

وإذا كنت قد قيّدت هذه الكلمة بلغة العراقيين المعاصرة فمن العلم أن أقول: انها قديمة فقد جاء في مطوّلات المعجمات:

أخّ: كلمة توجّع وتأوّه من غيظ أو حزن.

وقد علق ابن دريد فقال: أحسبها محدثة.

٤ - بَخْ:

العرب تقول للشيء تمدحه بخْ بَخْ بالسكون، أو بخٍ بَخْ بكسر وتنوين في الأولى وإسكان الثانية.

وهذه من موادّهم القديمة التي شاعت في العربية القديمة حتى جاء: بَخْبَخَ

الرجل، أي قال: بَخٍ بخٍ.

وقال الحجاج لأعشى همدان بعد قوله:

بين الأشجّ وبين قيسٍ باذخ   بَخْبِخْ لوالده وللمولودِ

والله لابَخْبَخْتَ بعدها.

ومن شيوع هذه المادة القديمة أنها أدّت إلى قولهم: اِبل مُبَخْبِخة أي عظيمة الأجواف، مأخوذة من: بَخٍ بَخ.

٥ ـ تعال:

اختلف النحاة في هذه الكلمة فمنهم من ذهب إلى أنها فعل أمر، ومنهم من قال: اسم فعل أمر. ومعناها معروف.

أقول: والصواب انها كلمة أمر تلحقها الضمائر كما تلحق فعل الأمر فيقال: تعالَ وتعالَيْ وتعالَوا وتعالَيْن، ولم اجد تعالَيا للمثنى، وقد تكون وردت حملاً على أخواتها.

قلت: انها كلمة أمر ولم أقل فعلاً لأنها كلمة لانعرف لها فعلاً ماضياً أو مضارعاً. ومثل هذه كلمات أخرى هي هلم وهات وسيأتي الكلام على ذلك.

٦ ـ حَسّ:

وحَسّ كلمة تقال عند الألم، فيقال: إنّي لأجد حِسّاً من وَجَع، قال العجّاج:

فما أراهم جزعاً بحِسٍّ   عطفَ البلايا المَسَّ بعد المَسِّ

أقول: على أن هذا شيء مما نحن فيه، وليس هو المصدر «الحِسّ» بمعنى الإحساس والشعور والعرب تقول عند لذعة النار والوجع الحاد: حَسٍّ بَسٍّ، وضَرِبَ فما قال: حَسٍّ ولا بَسٍّ بالجر والتنوين، ومنهم من يجرّ ولا يُنوِّن، ومنهم من يكسر الحاء والباء، ومنهم من يقول: حَسّاً ولابَسّاً.

ويقال: اقتَصَّ من فلان فما تَحسَّسَ أي ماتحرَّك ولا تضوّر.

وقال الأزهري: وبلغنا أن بعض الصالحين كان يمدُ إصبعه إلى شعلة نار، فإذا لذعته قال: حَسِّ حَسِّ، كيف صبركَ على نار جهنّم وأنتَ تجزع من هذا.

وقال الأصمعي: ضَرَبه فما قال حَسٍّ، قال: وهذه كلمة كانت تُكرَه في الجاهلية، وحَسٍّ بمعنى اوَّه.

أقول أيضاً: لعل هذه الكلمة القديمة التي تحكي الألم والوجع كان أساساً لمادة «حسس» في العربية التي جاء منها الفعل «أحسَّ» وما يخرج منه! أما «البس» فهو إتباع كما أرى، نظير ماورد من قولهم: شذر مذر، ونحو ذلك.

٧ - حَيَّهل:

قال النحاة أن «حيهل» اسم فعل مشترك بين أفعال سميت به فيستعمل على أوجه، قالوا: «حَيَّهل الثريدَ» بمعنى ائتِ الثريد، و «حيّهل على الخير» بمعنى أقبِلْ على الخير، وقالوا: «إذا ذُكِرَ الصالحون فحيَّهَل بعُمرَ» أي أسرعوا بذكره.

أقول: وأرى ان «حيّهل» مركب من «حيَّ» بمعنى أقبل وأسرع كقول المؤذن: حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح. وقد زيدت «هل»، والذي أراه أن «هل» هذه هي «أل» أداة التعريف في الأسماء التي تأتي بعد قولهم «حيّ» أي «حيّ الصلاة» «حي الفلاح»، فلما ركِّبت على هذا النحو بعد الابدال بين الهمزة والهاء صارت «حَيّهل» وكأنها كلمة واحدة تسبق مابعدها، ولما احتلمت أو تضمنت معنى «أقبِلْ» اقتضت الخافض «على» فقيل: «حيّهل على الخير».

ولما استعملت على الأصل «حيّ» بقي لها هذا الخافض.

٨ - زِه زِه:

كلمة تقال في استحسان شيء فكانوا يقولون: زِه زِه استحساناً لما يسمعون من قول حَسَن واستزادة له. وقد كنت وقفت على هذه الكلمة في

كتب النصوص القديمة، ولم تشر إليها المعجمات.

٩ ـ سُبحان:

مصدر قديم بمعنى التسبيح، أوقل: ان «التسبيح» والفعل منه جاء من «سُبحان». وقد عرفت العربية الجاهلية كلمة «سبحان» فقد قال الأعشى:

أقـــول لما جـــاءني فخـــره سبحـان مـن علقمــةَ الفــاخِـرِ

أي براءة منه.

وقال سيبويه: سبحانَ اللهِ، أي أبرِّئُ الله من السوء براءةً. وقالوا: «سبحان اللهِ» تنزيه الله عن السوء.

أقول: وليس لنا أن نتابع النحويين فنحشر هذه الكلمة في باب أسماء الافعال ومثلها «سَرْعان» و «وشكان» بمعنى السرعة والقرب، وهما مصدران قديمان على نحو «سبحان» فإذا كان لـ «سبحان» استعمال خاص هو التنزيه والبراءة أو التسبيح يقرب من الدعاء، فليس لـ «سرعان» و «وشكان» معنى خاص فهما باقيان في حيّزهما الدلالي القديم، واستعمال «سرعان» كثير وارد، أما «وشكان» فقليل نادر. ونصب هذه المواد على المصدرية.

١٠ ـ شتان:

قال النحاة: إن «شتّان» اسم فعل ماضٍ بمعنى «افترق» وقد كنا عرضنا إلى ذلك. ولا بدّ لنا أن نقول: ان قسر «شتان» على هذا النحو يفقد الكلمة أصالتها، وعندي انها مصدر مثل «سبحان وسرعان ووشكان». وإذا كان «شتان» يفيد الافتراق فلا يعني انه يعدل الفعل الماضي «افترَقَ».

ولعل من المفيد أن نصير إلى استعمال هذه الكلمة في الأدب القديم:

قال الأعشى:

شتّانَ مـايـومـي على كُـورهـا ويـومُ حيّـانَ أخـي جـابـر

وقول حسان:

وشتـان بينكما في النـدى وفي البـأس والخير والمنظـر

وقال جميل:

أريد صلاحَه وتريد قتلي ... وشتّا بين قتلي والصلاح

وقال البعيث:

وشتان ما بيني وبين ابن خالدٍ ... أميّة في الرزق الذي يُتَقَسَّم

وقال أبو الأسود:

وشتّان ما بيني وبينك انني ... على كل حال أستقيم وتظلَعُ

وقال ربيعة الرقيّ:

لشتّانَ مابين اليزيدَيْنِ في الندى ... يزيدِ سُلَيْمٍ والأغَرِّ بنِ حاتِمِ

وقال ابن برّي: وقول الأصمعي: لاأقول «شتّان مابينهما» ليس بشيء.ولنا أن نلحق بهذه المصادر المنصوبة على المصدرية «بُطآن» من البطء، ورُوَيْدَ بمعنى امهَلْ وتمهَّلْ.

١١ ـ شيب:

والشِّيبُ حكاية صوت مشافر الإبل عند الشرب، قال ذو الرمة يصف إبلاً تشرب في حوض متثلّم وأصوات مشافرها: شِيب شِيب:

تَداعَيْنَ باسم الشِّيبِ في مُتثلّمٍ ... جوانبُه من بَصرةٍ وسِلامِ

أقول: وكان حق هذه الكلمة القديمة أن أشير إليها مع اسماء الأصوات، ولكني آثرت أن أضعها في حيزها الهجائي لأشير إلى أن جملة هذه الاسماء خليط لم يُحسن النحاة النظر إليه فجمعوها، يدفعهم النظر النحوي ليس غير، وإلا فأين «شتّان» من «صه» ونحو ذلك؟

١٢ ـ صه:

قال النحاة: إن «صه» بمعنى اسكت. وقد حسبوها اسم فعل أمر بدلالة المعنى ليس غير، فليستهي عاملة في «مفعول به» ظاهر، وليس من فاعل لها إلا المتكلم فيقال: صَهْ إذا تكلّم غيرُك. وهي زجر للمتكلم، وقولهم منها: صَهْصَهَ بهم، أي اسكتهم فقال لهم: صَهْ صَهْ.

أقول: ولعل خير مايمكن أن يمثّل للكلمات الدالة على الأصوات التي تفيد معنىً خاصاً هو هذه الكلمة «صَهْ».

ومن غير شك أن الصوت الدالّ على السكوت وفيه إشارة لطلب السكوت أو للتنبيه هو الصاد وحده، وإنما جيء بالهاء ليحسن النطق بالصاد، وليحوّل إلى شِبه كلمة، وليس «هاء السكت» كما قيل. ألا ترى أن العامة في عصرنا ولا سيمّا في العراق تلجأ إلى الصاد في طلب السكوت ولكنهم يسبقونه بهمزة ليحسن النطق به وليحوّل إلى شبه كلمة كما بيّنا، وقد يسبقونه بهاء فيقولون «أصْ» أو «هصْ» على البدل بينهما.

وإذا كان الصاد صوتاً يراد به السكوت في هذه الكلمة «الصوتية» فمثله «السين» وأهل القرى في جنوب العراق يقولون «إس» طلباً للسكوت.

وليس هذا غريباً فالسين والصاد من الأصوات الصفيرية التي يعرض لها الابدال في العربية الفصيحة نفسها ألا نقول: السراط والصراط، والسخب والصخب ومثل هذا كثير. وقد تكون الكلمة الفصيحة بالسين، ولكنها في الألسن الدارجة بالصاد نحو «سخيّ» في فصيح العربية، و «صِخيّ» في العامية، والسين يعرض لها التفخيم مع الخاء فتتحول إلى صاد بين العامية والفصيحة، والشواهد كثيرة.

وإذا كان هذا الصوت وأعني به الصاد أو السين قد ذهبوا به إلى طلب السكوت، فمثله الشين الذي نسمعه في بعض الألسن الدارجة للإعراب عن السكوت «إش».

وإذا كنا قد سجّلنا اختلافاً بل تنوعاً في هذه الأصوات المتقاربة لإفادة السكوت بحسب المعربين، فذاك أمر حاصل في كثير من المواد. ألا ترى أن زجر القط يؤدّى بالكلمة «بِسْ» بكسر الباء،مع السين لدى طائفة غير قليلة من العرب، في حين أنك تجد طائفةً تزجر القط بالكلمة «بِش» بكسر

الباء مع الشين، والسين والشين من الأصوات التي يحصل فيها الإبدال بحسب الجماعات أو القبائل أو البلاد.

١٣ ـ مَهْ:

وجدنا النحويين قد قالوا في باب « أسماء الأفعال »: إن « مَهْ » اسم فعل أمر بمعنى « اكفُفْ » ولم يأتوا بشاهد يؤيد هذا.

ولم نجد أهل اللغة قد ذكروا هذا في ترجمة « مهه » مثلاً. وهذا لايعني أنها غير موجودة ذلك ان النحاة لابد أن يكونوا قد وقفوا عليها في كلام العرب، وفات أهل المعجمات تسجيلها، وهذا الفائت من كلام العرب كثير جداً.

ويبدو لي أنّ « مَهْ » هذه ربما جاءت من « ما »، والوقوف على « ما » يؤدي إلى قصر الألف والاكتفاء منها بالفتحة وإضافة الهاء للسكت، ولتكون على صوتين فتكون بذلك كلمة كغيرها من الثنائيات.

أقول: و « ما » هذه هي النافية التي اكتسبت معنى « الكف » حين تحوّلت إلى « مَهْ ».

١٤ ـ هاتِ:

ذكر النحاة هذه الكلمة واختلفوا في تصنيفها فمنهم من ذهب إلى أنها فعل أمر بدلالة مايدخل عليها من الضمائر كقولهم: وهاتوا » و « هاتين »، ومنهم من أدرجها في باب « أسماء الأفعال » وقال: إنها إسم فعل أمر والمعنى « أعطِ »، فإذا قلت: هاتي فالمعنى أعطني. أقول: فات النحويين أن يقرّبوا بين هذه المادة وبين الفعل « آتى » بمعنى « أعطى » كقوله تعالى:

« وآتى المالَ على حبّه ذوي القُربى واليتامى والمساكين » ١٧٧ سورة البقرة.

وإلى هذا أشار الخليل كما أورد الرضي في « شرح الكافية ٢/٧٠ ».

وكأن هذه الكلمة « هاتِ » بعد إبدال الهاء بالألف جَمَدت على بناء خاص وابتعدت عن الأصل وهو الفعل « آتى » فذهبوا فيها إلى ماذهبوا إليه.

١٥ ـ هلم:

هي نظير « تعال » وبمعناها وكما قلنا في « تعال » واختلاف النحويين في النظر إليها، كذلك الأمر في « هَلُمّ». وما قيل في « تلك » يقال في « هذه ».

١٦ ـ هيت:

قالوا في « هَيْت » انها بمنزلة الأصوات التي ليس لها فِعل، مثلثة الآخر. ولم يعرض لها النحاة ولكنها وردت في المعجمات وفي كتب تفسير القرآن وذلك لمجيئها في قوله تعالى: « وغَلّقت الأبوابَ وقالت هَيْتَ لك » ٢٣ سورة يوسف.

واختلفوا في قراءة « هَيْتَ » فجاء من ذلك « هِيتِ » بكسر الهاء مع الفتح، كما ورد « هَيْتُ » بالضم. وقرئت: « هِئْتُ لك » بكسر الهاء مع الهمز، وهي قراءة ابن عباس بمعنى تَهيَّأتُ. على أن الكثير منهم لم يتضح له المراد منها فقال: هيتَ لك تعجب.

وقد تعجب ان المعجمات قد أثبتت فعلاً « هَيَّت »وهيَّتَ به أي صاح ودعاه.

أقول: والذي أراه أن قراءة ابن عباس يحسن الوقوف عليها، وهو أن الكلمة « هَيْت » على غموضها تشعر بهذا المعنى وهو « الهيئة » ولذلك كانت قراءته « هِئتُ » وكأنها فعل. والهيئة من المصادر القديمة التي ليس لها فعل ثلاثي والمعروف من الفعل « تهيَّأ » المزيدْ بالتاء ثم التضعيف أنه فعل صُنِع من « الهيئة » بعد شيوعها واستعمالها الكثير.

والذي يقوّي هذا أن الفعل « هايا » (הָיָה) في اللغة العبرانية يفيد الكينونة، و« الهيئة » في العربية تعني الكينونة والوجود في أصل الوضع ثم أصابها شيء آخر أتى به الاستعمال، فكان فيها معنى خاص لايبعد عن هذا الأصل الذي وصلنا إليه.

والذي أراه أيضاً أن مادة « هو » و « هي » شيء من هذا الأصل البعيد وهو الكينونة، ولكنّهما تجاوزا قليلاً فصارا يدلاّن على « هُويّة » الكائن الموجود.

١٧ - هيهات:

لقد أشرنا في « البسطة النحوية » إلى هذه المادة.

ونضيف هنا أن فكرة البعد حاصلة فيها ولكننا لانذهب إلى أنها اسم فعل « ماضٍ » فأين المضيّ في كلمة يراد منها اظهار البعيد الذي لايتحقق في الغالب، ومن أجل هذا أنها لا تعرض في الكلام إلا والمتكلم لا يأمل شيئاً يتحقق وهو أقرب إلى المنقطع اليائس من ذلك. ومن المفيد أن نشير إلى أن هذه الكلمة القديمة قد بقيت في عربيتنا المعاصرة وقد تجاوزتها فعرفتها طائفة من الألسن الدارجة.

١٨ - وا، واه، وَي:

هذه جملة من الكلم القديم فأما « واه » فقد ذكر لها النحويون شاهداً أثبتناه في أول هذا الفصل، وألحقوه ب« واه » و « وَيْ » وكلها بمعنى أعجَبُ.

ولم يأت من هذا كله في لغة التنزيل إلاّ قوله تعالى:

« وَيْ كأنه لايفلح الكافرون » (٨٢ سورة القصص)، أي أعجب لعدم فلاح الكافرين.

وقالوا في « واه » الرجز المنسوب لرؤبة وإلى غيره وهو جملة من الرجز أوّله:

واهاً لسلمىَ ثم واهاً واها

أقول: وكل هذا لايمكن أن ينخرط في باب « اسم الفعل » وأنه مضارع بمعنى أعجب، وذلك لانتقاء مفهوم الجملة الخبرية في كلام يبدأ بهذه الكلمات التي تعني التعجب وتعني غيره مما يمكن أن يلمح من النص الذي ورد فيه.

وقال أهل اللغة:

وَيْه كلمة إغراء، ومنهم من ينوِّن فيقول: وَيْهاً للواحد والاثنين والجميع. قال الكميت:

وجاءت حوادثٌ في مثلها يقال لمثلي وَيْهاً فُلُ

وهو تحريض.

وقال حاتم:

وَيْهاً فدىً لكُمُ أُمّي وما وَلَدت حاموا على مجدكم واكفُوا من اتَّكَلا

وقال الأعشى:

وَيْهاً خُثَيم إنه يوم ذَكَرْ وزاحَم الأعداء بالثَّبْتِ الغَدَرْ

وقد أشرنا إلى طائفة من الكلم جعلها النحاة من أسماء الأفعال وهي ظروف وجار ومجرور نحو «دونك» بمعنى تَنَحَّ، و «عليك» بمعنى الزَمْ، فنقول:

«دونك الكتاب» و «مكانَك يازيد» و «وراءَك ياعمرو» كما نقول: «إليك عنّي» و «عليك بالصبر».

أقول: والذي يهدي إليه النظر أن هذه المواد ليست «أسماء أفعال» أمر، بل هي ظروف وجار ومجرور ولكنها استغنت عن أفعال سبقتها إيجازاً فنابت منابها وشاعت وانصرفت إلى المعنى المراد لكثرة ورودها في استعمالهم.

والكلام أبلغ وأجمل ان كان موجزاً كقولك: «دونك الكتابَ» من قولك: «خذ الكتاب دونك» ومثل هذا يتوجه قولنا في «مكانَك يازيد» إذ هو أقرب إلى الاسلوب البليغ من قولنا «اثبت مكانك يازيد».

ورُبّما امكن بشيء من اللطف أن نصل إلى أن «إليك عني» و «عليك بالصبر» ضرب موجز لجملة طلبية صدرت بفعل أمر أو فعل طلب ثم اجتزىء عنها بهذا الجزء الباقي. وقد جرت العربيةَ في طريق الايجاز ماوسع الأمر ذلك، وأعني إن أمِن اللبس، أو أن مقتضى الحال يستدعي شيئاً من إطناب، وإلا فالإيجاز هو البلاغة. وعندي ان اسقاط الخافض ونصب الاسم شيء اقتضاه ذوق العربي القديم في الإيجاز، ألا ترى أن الله ـ سبحانه ـ قال:

« واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا » ١٥٥ سورة الأعراف . ولم يقل : « واختار موسى من قومه سبعين رجلاً لميقاتنا » . وقد يكون حذف الخافض شيئا يراد به الايجاز الذي هو البلاغة في كثير من الأحوال .

وأكتفي بهذا القدر من الكلام على هذه المواد القديمة التي ذهبت بنا إلى فوائد أخرى .

الخاتمة

لقد أشرنا إلى جملة مواد من أساليب القرآن ووقفنا عليها وقفات خاصة عرضنا فيها مابدا لنا من أمر هذه الفوائد النافعة. وكان لنا من ذلك شيء يخالف ماذهب إليه النحاة الأوائل.

وقد قلنا: ان النحاة قيدوا أنفسهم بفهم خاص، فرض عليهم أسلوباً خاصاً من النظر والتطبيق. وبسبب من هذا قسروا أنفسهم على أن يقولوا شيئاً لايأتي إلا على مسائل نحوية من جنس ما اعتقدوا أنه من علم النحو، وزادوا عليه مما توهموه من هذا الباب ليتم ماأرادوا. وكان من نتائج ذلك أنهم غضوّا الطرف شاعرين أم غير شاعرين عن فوائد أخرى مما ورد في لغة التنزيل لأنها لاتدخل في حيز الجملة وأجزائها وماكان من إعرابها ومما هو معروف من لوازم هذا العلم النحوي. وكان لأجزاء هذه الجملة النحوية في المصنفات القديمة من هذا العلم أقوال خاصة لايتجاوزونها إلى شيء آخر من نصاب هذه المواد.

وتجاوز الأمر في هذا الفهم القديم المصادر القديمة إلى ما صنفه المحدثون في النحو ومشكلاته، فقد درج هؤلاء على المأثور المعروف في كتب النحو القديم. وإذا قلت «النحو القديم» فالمراد فيه النحو الذي حرره النحاة البصريون، وليس شيء من هذا قد أخذ مما أثر عن النحاة الكوفيين. وقد كان للنحاة الكوفيين فهم آخر ومنهج آخر، ولا يخلو منهج هؤلاء من شيء حسن.

قلت: لقد حفلت كتب النحو قديمها وحديثها بالعلم النحوي الذي ظل هو هو طوال العصور المتتابعة، وكان من آثار ذلك أن استقر في أذهان الدارسين أن ما ثقفوه في هذه الكتب هو نهاية العلم، وأن ليس شيء يخالف هذا الذي ثقفوه من العلم الصحيح. وآية ذلك أنك تجد طائفة من المعنيين بـ «التصحيح اللغوي» يشددون النكير على المعربين فيضيّقون عليهم اللغة، وهي

بضاعة مزجاة لديهم. ولهؤلاء أقول: لقد حَجَّرتُم واسعاً، ألا ترى أني وقفت على قول لأحد هؤلاء في الفعل «صار» وقسره على المألوف المشهور في كتب النحو، وأنه من الأفعال الناسخة نظير «كان» وما يتبعها من «أخواتها»، وان القول السليم فيها أن نقول:

«صار الماء جليداً» وهو هنا يفيد الصيرورة والتحول.

وعلى هذا كان ظن هذا الرجل من أهل العلم، المعنيّ بالتصحيح، أن قولنا مثلاً: «وسنصير إلى الفهم الصحيح في هذه المسألة» من الخطأ الشائع، لأنها تنافي الأستعمال الذي عرفه في كتب النحو.

أقول: هذا شيء مما ندعوه في عصرنا «النتائج السلبية» لهذا الدرس النحوي الذي أخذه الدارسون فحسبوه كل شيء في هذه العربية.

وقد فات الدارسين في عصرنا أن النحاة الأوائل كان لهم من منهجهم وعلمهم النحوي ما صرفهم عن أشياء كثيرة ظنوا أنها لاتدخل في نصاب علم النحو، فكان من ذلك أنهم لم ينظروا في مواد كثيرة هي موادهم لوأنهم أدركوا الأمر على نحو آخر، وكان من ذلك أن جهل أهل عصرنا الكثير من العربية لأنهم جَمَدوا على ما أثِر في كتب النحو فظنوه نهاية في العلم، ولأنّهم لم يشقوا أنفسهم بالدرس والنظر في أساليب هذه العربية، وحسبك أن تعلم أنهم لم يفطنوا إلى ماورد في لغة التنزيل، ذلك أنهم لم يقرأوا كثيراً من هذه الآيات البينات، وإذا كان لهم أن يقرأوا فلا تستوقفهم العبارة المشرقة والكلمة البينة وطريقة استعمالها.

أقول: لو أن هذا الذي تصدّى للتصحيح كان قد أطال النظر وأعمل الفكر في قراءة القرآن لأدرك أن الله ـ سبحانه ـ يقول:

«ألا إلى الله تصير الأمور» (٥٣ سورة الشورى).

«وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير (٢٨٥ سورة البقرة).

واستعمال الفعل «صار» والاسم «المصير» في هاتين الآيتين وفي آيات أخرى يشير إلى أن الفعل «صار» كغيره من الأفعال الذي يكتفي بالمرفوع

بعده، وهذا الاستعمال يدلنا على أن استعمال «صار» في العربية المعاصرة صحيح، وأنه نظير ما جاء في لغة التنزيل.

ولو أن النحاة البصريين أعملوا الفكر لاهتدوا إلى الحقيقة، ولوجدوا أن مقولة الكوفيين ليست من الخطأ، وهي أن هذه الأفعال كغيرها من الأفعال، وان المنصوب بعد المرفوع شيء من مصطلح «الحال».

ومن التزام النحاة بوجه واحد لايصيرون إلى غيره من الوجوه مما أثر في العربية، جملة أفعال من «النواسخ» وهي من «أخوات» كان، ومن هذه: أصبح، وأضحَى، وظلّ، وأمسى وبات وغيرها.

وهذه الأفعال وثيقة الصلة بأصولها الحسية، فقولنا: «أصبَحَ» من «الصبح» و «أضحى» من «الضحى» و «ظل» من «الظلّ» أي النهار، و «أمسى» من «المساء» و «بات» من «البيت» يأوي به الإنسان في «الليل».

وهذه الأفعال تظل في هذا الحيّز من الدلالة القديمة فتقول: أصبح النهار والصبح، وأضحى الرجل بمعنى: كان في الضحى، وأمسى المساء الحزين، وظل الطفل طوال النهار يلعب، وبات ليلته تلك.

وهذه الاستعمالات هي غير المعروف من الاستعمالات الكثيرة الأخرى التي تقيد الفعل بالاسم المرفوع والخبر المنصوب، كما قالوا نحو: أصبح زيد مريضاً ونحو ذلك. ولو لم يتمسك النحاة بنظرهم القديم لأدركوا أن هذه الذي يدعونه فعلاً ناقصاً من: «أصبَحَ» و «أضحَى» وسائر الأفعال التي أشرنا إليها هو شيء واحد، وان المنصوب شيء من «الحال»، وان الاختلاف لايخرج عن الحقيقة والمجاز.

ومن المفيد أن نعرض لطائفة من هذه الاستعمالات التي قسرها النحاة على وجه واحد فلم ينظروا إلى الوجوه الأخرى.

ومن ذلك ما ذكروه من الأفعال التي ألحقوها بـ «كان» في العمل وهي المسبوقة بنفي أو نهي أو دعاء وهي أربعة زال (التي مضارعها يزال) وبَرِحَ وفِتِيء وانفَكّ.

وهي كقوله ـ تعالى ـ:

« ولا يزالون مختلفين » (١١٨ سورة هود).

« لن نبرح عليه عاكفين » (٩١ سورة طه).

« تالله تفتؤ تذكر يوسف » (٨٥ سورة يوسف).

وقول امرىء القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

وقول الشاعر:

صاحِ شمِّر ولا تَزَل ذاكر المو تِ فنسيانُه ضلال مبينُ

وقول ذي الرمّة:

ألا ياأسلَمي يا دارَ ميَّ على البِلى ولا زال منهلّاً بجرَعائك القطرُ

ومن هذه الأفعال مايعمل بشرط تقدم « ما » المصدرية الظرفية وهو « دام » كقوله ـ تعالى ـ:

« وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيّاً » (٣١ سورة مريم).

أقول: وأنت تجد أن لهذه الأفعال استعمالات أخرى تبتعد قليلاً عما ذكره النحاة، ولم يلتفت إليها النحاة لأنها لاتحقق لهم ماأرادوا.

ومن هذا مانجده مثلاً في كثير من النصوص القديمة نجتزىء منها بما جاء في كتاب « كليلة ودمنة » :

... ولايزال الضرس في ألم منه وأذىً حتى يقلعه (ص ١٢٥).

وجاء أيضاً:

... فإنه لايزال لك في نفسك الخيار ما دام لايعلم أنّ أمره قد وصل إليك. (ص ١٢٥).

وجاء أيضاً:

والماء اذا دام انحداره على الحجر لم يزل به حتى يثقبه (ص ١٣٤).

أقول: هذه الأشتات التي وقفت عليها في هذا الموجز مايمكن أن يكون حافزاً إلى العود إلى هذه العربية لتسجيل فرائدها وفوائدها على نحو أكثر اتصالاً بالعلم النافع.

الفهـــــرس

المقدمة ٥
من أساليب الدعاء في العربية ١١
أسلوب النداء في لغة التنزيل ٤١
أسلوب القسم في الشعر ولغة التنزيل ٤٥
أسلوب التوكيد في لغة التنزيل ٦١
أسلوب التعجب في لغة التنزيل ٦٧
أسلوب التفضيل في لغة التنزيل ٧٥
أسلوب المدح والذم في لغة التنزيل ٩٣
الدلالة في طائفة من الأفعال ١٠٩
ما يسمى « أسماء الأفعال » ١١٩
الخاتمـــة ١٣٩
الفهـــرس ١٤٤